من آثار ابن ابى الضياف المخطوطة

بقلم : رياض المرزوقي

لم تعد مكانة أحمد بن أبي الضياف المؤرخ التونسي المتوفى سنة 1874 في حاجة الى تدعيم أو تدليل ، فقد تناوله الدارسون بالبحث في مواضع عدة متنوعة من حيث الترجمة ، او الشخصية ، او الآراء والمكانة (1) .

---

(1) من الدراسات حول ابن أبي الضياف :
- المؤرخون التونسيون في القرون السابع عشر ، والثامن عشر ، والتاسع عشر (بالفرنسية) لأحمد عبد السلام - تونس 1973 . ص ص 332 - 382 .
- مقدمة الباب السادس من اتحاف أهل الزمان (دولة أحمد باي) بتحقيق أحمد بن عبد السلام - تونس 1971 .
- تقديم المنصف الشنوفي لرسالة ابن أبي الضياف في المرأة . حوليات الجامعة التونسية العدد الخامس ص 49 وما بعدها .
- ملامح شخصية ابن أبي الضياف من خلال تاريخه لمحمد الصادق بسيس . العمل الثقافي سنة 1971 . مجموعة من المقالات بداية من العدد 128 .
- وفي (أقدم ترجمة لابن أبي الضياف) تحقيق المنصف الشنوفي (الحوليات ، العدد الخامس ص 111 وما بعدها) ذكر لمجموعة مقالات وكتب أخرى .
ومن المخطوطات التي ترجمت له وأثبتت مختارات من شعره ونثره :
- أشهر ملوك الشعر والنثر بتونس في القرن الثالث عشر - لمحمد الباجي المسعودي (رقم 2515 . دار الكتب الوطنية) الورقات : 116 - 148 .
- العقد المنضد في اخبار الباشا المشير أحمد لمحمد بن سلامة (رقم 18618 - مكتبة عبد الوهاب) في مواضع عديدة متفرقة .

واننا هنا لا نرى حاجة فى العودة الى ترجمته فليس عندنا عناصر جديدة اضافية ، لكننا نشير الى وجود كثير من الكتابات النثرية والاشعار له ضمن المخطوطات (2) وفيما يلى جدول بما عثرنا عليه منها :

1 ـ النـثـر :

أ ـ الكتابات الرسمية :

ـ نص أمر بتقليد محمد المرابط النيشان بتاريخ 7 ذى القعدة 1837/1253 (كنش يبدو أنه لصهر بن أبى الضياف رقم 16589 دار الكتب الوطنية الورقة 181) .

ـ نص أمر بتقليد محمد الأصرم النيشان بتاريخ 6 محرم 1840/1256 . (نفس المصدر ـ الورقة 179) .

ـ تنبيهات لعسس السراية الملكية عند سفر أحمد باى الى فرنسا (1262 /1846) أولها :« هذا دستور يرجع اليه ، وقانون يعمل عليه، يطاع أمره ولايذاع سره .. الخ » نفس المصدر ـ الورقة 176) .

ـ ظهير لأخيه محمد باشا باى بتاريخ 1846/1262 . أوله : « هذا ظهيـر عظيم ، وكتاب كريم ، حررناه شارحا للصدور .. الخ (نفس المصدر . الورقة 176 ب) .

ـ ظهير فى تكليف محمود محسن بالامامة بتاريخ رمضان 1850/1266 . (نفس المصدر الورقة 183)

ـ نص أمر بتحبيس أراض فى عهد أحمد باى بتاريخ 1850/1267 . (كنش للطواحنى رقم 18833 ـ مكتبة عبد الوهاب ـ الورقة 63 ـ وما بعدها)

---

(2) راجع قائمة آثاره المطبوعة فى (رسالة ابن أبـى الضيـاف فى المـرأة) المذكورة أعلاه .

ب ـ الكتابات الشخصية :

ـ تهنئة الشيخ ابن الحسين بولايته الفتيا (أشهر ملوك الشعر المذكور أعلاه ، الورقة 65) .

ـ مراسلات بين محمد بن الخوجة وبين ابن أبي الضياف خلال رحلته الى باريس (مجمع الدواوين للسنوسي رقم 16628 دار الكتب الوطنية ، الورقة 130 وما بعدها)

ـ كتاب موجه الى حمده المناعي في نازلة حال (كنش صهره المذكور أعلاه الورقة 222)

2 ـ الشعر :

(انظر تفاصيل الجدول بالصفحة الموالية) .

كما ان له بعض الاشعار الشعبية والاغاني المحفوظة والمروية شفاهيا (4) .

وقد عثرنا على مقامة له بعنوان **(المقامة الجلية في الأنوار البشرية)** لم تشر اليها عن قريب او بعيد جميع المصادر والمراجع التي تناولت بالبحث ترجمة ابن ابي الضياف او آثاره ، فهل يمكننا اثبات نسبتها اليه ؟

انه لمن الصعب أن نؤكد تأكيدا قطعيا ذلك ، الا اننا نملك من الادلة ما يرجح انها له :

ـ فأغلب أهل الذكر يؤكدون ذلك ونذكر من بينهم خاصة الاستاذين ابراهيم شبوح والمنصف الشنوفي .

ـ وخط المقامة يتفق في نقط كثيرة مع ما نشر من نماذج خطية للكاتب (5)

ـ وطريقة التعبير فيها تتفق وأسلوب ابن أبي الضياف خاصة ، والعصر عامة في نقط عديدة منها : التراكيب ، والصيغ المتداولة (خاصة الديني منها) بعض التعابير العامية ..

---

(4) انظر مجلة (الاذاعة) عدد خاص بالفنون الشعبية ديسمبر 1963 . ص23.

(5) انظر نماذج من خطه بالحوليات (رسالة ابن ابي الضياف في المرأة) ، وبـ(أتحاف أهل الزمان ..) ـ تونس 1963 ، و(بالاعلام) للزركلي الجزء الثاني النموذج 96 .

مطلع المقطوعة	القافية	البحر	عدد الأبيات	الظروف	المصدر
يا قريبا فى فؤادى	مرادى	مجزوء الرمل (موشح)	5 مقاطع	مساجلة بينه وبين بيرم الرابع	كنش لمجهول لعله محمود الشريف كما ذكر فى بعض صفحاته ٠ رقم 16511 دار الكتب الوطنية ٠ الورقات 29ب ـ 30 ٠
حبيب رعى عهدا وبالطيف قد أسرى	أسرى	الطويل	13	تشوق الى تونس عندما كان باسلامبول (3)	نفس المصدر ٠ الورقة 65 ٠
أعد له منشآت الجبال	منظره	المتقارب	4	زيادة على قصيدة نظمها محمد الأصرم عندما ركب البحر مع الباشا أحمد من صفاقس الى قابس ٠	كنش غريب يؤنس الغريب ، منسوب فى الفهرسة غلطا الى بيرم الثانى ، وهو لبعض تلاميذه كما يستفاد من سياق المختارات ٠ رقم 529 د٠5٠و٠ الورقة 146ب وما بعدها ٠
تونس الأنس لها شوقى نما	النفس	الرمل (موشح)	6 مقاطع	الحنين الى تونس (معارضة لموشح ابن الخطيب)	كنش لمجهول (ذكر أعلاه) الورقات 9ب ـ 10 ٠
قدمت وتفدى بالنفوس مع الأهل	المحل	الطويل	20	تهنئة ابراهيم الرياحى عند رجوعه من الحج	نفس المصدر ٠ الورقات 11ـ12
عيش ابن آدم لا يدوم نعيمه	وعظيمه	الكامل	15	قصيدة حكمية ، يبدو أنها فى الرثاء ، مؤرخة بسنة 1242/ 1826 ـ 27	نفس المصدر ٠ الورقة 94 ٠

(3) الملاحظ أن هذه المقطوعة تشبه وزنا وقافية قصيدة اخرى لابن أبى الضياف أثبتت (بأتحاف أهل الزمان) الجزء الرابع ص‌ص 61 ـ 62 ، وقد وردت بالكنش فى سياق مختارات للباجى المسعودى ٠ أما نسبتها الى ابن أبى

– وظروفها ، والاشارة الى حوادث معينة فيها تتفق مع ما ذكر فى (الاتحاف) كما سيأتى ٠

– والحجة الاخيرة انه لا يوجد اى شىء يثبت نسبتها الى شخص آخر غير ابن أبى الضياف ، ولا الى وجود انتحال ما فى آثار الكاتب الاخرى ونعلل عدم ذكرها فى المصادر بأسباب هى :

1 – قلة أهميتها بالنسبة لبقية آثاره ، خصوصا تاريخه ٠

2 – تقدم تاريخ كتابتها على بقية آثاره فهى من بواكير انتاجه (6)

3 – انه لم يشتهر بكتابة المقامة (7) ، كما لم يشتهر بشعره (8) ٠

◆ **المقامة الجلية : تقديم وتحليل :**

يحمل مخطوط هذه المقامة الرقم 3586 بدار الكتب الوطنية ، أوراقه أربع ذات حجم يساوى 21،5 × 17،5 ٠ وتحتوى على 21 او 22 سطرا فى الوجه الواحد وفيها بعض التمزيق الناتج عن تآكل الورق ، وبالاضافة الى هذا أصيبت صفحاته ببلل جعل بعض الكلمات خصوصا اواخر السطور واوائل سطور الوجه المقابل ممحوة فى أغلب الاحيان ٠

---

(6) جرت العادة عند من يترجم للكتاب أن يهمل ذكر الآثار الأولى ، لأن انتاجها يتم قبل الشهرة ، وسنضبط تاريخا لتأليف المقامة أسفل هذا ٠

(7) عرفت الدولة الحسينية فى كل عهودها ادباء اشتهروا بكتابة المقامة ، منهم معاصر ابن أبى الضياف محمد السنوسى (المتوفى 1318/1900) [انظر « فصل من الرحلة الحجازية » تحقيق على الشنوفى ٠ الحوليات العدد السابع ص 79 وما بعدها] ، وسابقاه محمد الورغى (المتوفى 1190/1776) [انظر « مقامات الورغى » تحقيق عبد العزيز القيزانى ٠ تونس 1972 ، ومقال « حول مقامات الورغى » لرياض المرزوقى بمجلة (الفكر) جويلية 1973 ص 26 وما بعدها] وعلى الغراب (المتوفى 1183/1769) [انظر « ديوانه » تحقيق المطوى وابن سالم ٠ تونس 1974] ٠

(8) ما بقى لنا من شعره قليل الكمية والأهمية ، ولم تذكر المصادر له ديوانا أو مجموعة

والخط الذى كتبت به المقامة مغربى جميل واضح ، يستعمل مدادا أحمر لرسم الفواصل وكتابة أسماء الاعلام •

لم يذكر المؤلف تاريخا للمقامة ، لكننا نملك ارشادين هامين :

- مدحه لحسين باى (9)

- ذكره للولى الصالح سيدى البشير (10)

وبالرجوع الى القسم الخاص بعهد حسين باى من (اتحاف أهل الزمان ٠٠) عثرنا على ما يفيد أنه أقام زاوية لسيدى البشير ومسجدا ، الا أن الكاتب لم يضبط تاريخا لذلك (11) • وبما أن (الاتحاف) مرتب زمنيا ، فقد رجعنا الى الأسطر السابقة فوجدنا ذكرا لبناء الباى المذكور زاوية لسيدى عياد الزيات (12) فى ربيع الثانى 1248 / أوت 1832 ؛ كما ورد فى حديث الكاتب عن بناء زاوية البشير ذكره لتشييد أبنية بمقام السيدة المنوبية (13) ، والملاحظ أن حسين باى « ضايقه الاجل عن اتمام برج المنوبية » - حسب لفظ (الاتحاف) - ، وقد توفى هذا الباى سنة 1251/1835 • فتكون المقامة لكل ما ذكرنا ألفت بين التاريخين المثبتين أعلاه ، ونستنتج عن هذا بعض الملاحظات الهامة :

- أن المقامة أول أثر معروف للكاتب (14)

---

(9) حسين باى حكم بين 1239 - 1251 / 1824 - 1835 • انظر الاتحاف الجزء الثالث ص ص 151 - 193 •

(10) محمد البشير (او الباشير) (المتوفى 1242/1827) : انظر الاتحاف الجزء السابع ص ص 145 - 147 •

(11) انظر (الاتحاف) الجزء الثالث ص 192 •

(12) أبو هلال عياد بن مخلوف التميمى (المتوفى 650/1252) • انظر (الاتحاف) • نفس المرجع

(13) السيدة عائشة المنوبية (المتوفاة 653/1255 - او 665/1266) من المجذوبات انظر مناقبها لمحمد اللواتى تونس 1344 هـ (والملاحظ أن عدة مخطوطات موضوعها مناقب المنوبية توجد بالمكتبة الوطنية منها الرقم 16577) والحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامى لمحمد البهلى النيال - تونس 1348/1965 ص ص 252 - 254 •

(14) كل الآثار المعروفة للكاتب سبقتها المقامة ، وهذا ترتيب آثاره تاريخيا :

ـ أنها من الثمرات الأولى لوظيف (الكتابة) ، ففيها جانب مدحى هام (15)

ـ أنها كتابة شاب (16) ، فالجانب التمرينى فيها هام أيضا (17) ٠

أ ـ رسالة الى خير الدين	بين 1270 ـ 2181	/	بين 1854 ـ 1864
ب ـ رسالته فى المرأة	1272	/	1856
ج ـ حكمه فى شهادة الكافر	1276	/	1860
د ـ سؤاله الى أعضاء المجلس الاكبر	1277	/	1861

هـ ـ أما (الاتحاف) فيصعب تحديد تاريخه ، لكن من المؤكد أنه كتب فى أواخر حياته (انظر رسالته فى المرأة المذكورة أعلاه ص 62 ، التعليق 36 ـ والباب السادس من الاتحاف بتحقيق عبد السلام وهو مذكور أعلاه ص 12) ٠ وأول تاريخ يذكر لتحرير الاتحاف 1862/1278 ٠ فتكون المقامة لذلك سابقة لأول ما عرف من كتابات لابن أبى الضياف بحوالى العشرين سنة ٠

(15) نذكر بأن ابن أبى الضياف تولى هذا الوظيف فى عهد حسين باى المذكور ، وذلك سنة 1826/1241 (انظر «أقدم ترجمة لابن أبى الضياف» تحقيق المنصف الشنوفى ٠ حوليات الجامعة العدد الخامس ص 116) ، وهو لم يمدح أيا من مخدوميه خارج هذه المقامة ـ اذا ما استثنينا الابيات الاربعة المذكورة بجدول آثاره الشعرية أعلاه) ، بينما جرت العادة ان الكبراء عامة ، والكتاب منهم خاصة يمدحون الملوك نثرا وشعرا حتى ولو كان مدحهم غثا ركيكا ٠ ومن الذين اشتهروا بالمدح من المعاصرين لابن أبى الضياف محمد الأصرم الكاتب (المتوفى 1861/1277) ، ومحمد بن سلامة القاضى (المتوفى 1850/1266) ٠

(16) ولد الكاتب سنة 1804/1219 ٠ فيكون سنه عند تأليف المقامة حوالى الثلاثين ٠

(17) لا شك ان للمقامة دورا تعليميا وتمرينيا هامين ، فاظهار البراعة فى النثر والشعر ، والخضوع للقواعد الفنية المختلفة ، والتصنع اللفظى والمعنوى فيها ، تعجم عود الشاب الأديب ٠ ولهذا السبب انتشرت نسخ المقامات المشرقية فى خزائن المخطوطات الباقية من العهد الحسينى (انظر فهرس المكتبة الاحمدية لعبد الحفيظ منصور ٠ بيروت 1969 ص 82 وما بعدها ، وفهارس المخطوطات بدار الكتب الوطنية) ويقول فى ذلك ابن الطقطقى: « ان المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الانشاء والوقوف على

إن موضوع المقامة الاساسى هو مدح الاولياء ، وقد ذكر الكاتب أربعة منهم ٠ أبا الحسن الشاذلى (18) ومحمد البشير (19) ، والشيخ الونيس (20) ، وولية « شيخة » لم يفصح عن اسمها (21) ٠

ولعل عنوان المقامة « المقامة الجلية فى الانوار البشرية » يدل دلالة واضحة على فحواها ٠ والملاحظ أن « أدب المناقب » (22) كثير الانتشار فى العهد الحسينى خاصة فى شكل « المقامة » (23) ؛ وقوامه عناصر تقليدية تنحصر غالبا فى النقط التالية :

- الاشادة بالعبادة والتقوى ، وكثرة الاعتكاف والاختلاء ٠

- ذكر « الكرامات » والاعمال الخارقة المنسوبة للأولياء ٠

مذاهب النظم والنثر ٠٠ » (الفخرى فى الآداب السلطانية ط٠ المطبعة الرحمانية مصر ص 10)

(18) على بن عبد الله الشريف الزرويلى (المتوفى 656/1258) : ولى معتقد فيه له مقام بجبل الزلاج (انظر مناقبه « درة الاسرار وتحفة الابرار » لابن الصباغ ، ودائرة المعارف الاسلامية فصل « الشاذلى » و « الشاذلية »، والمدرسة الشاذلية الحديثة وامامها لعبد الحليم محمود ٠ مصر ٠ د٠ت ، والحقيقة التاريخية للتصوف ٠٠ المذكور أعلاه ص 299 ، والحلل السندسية فى الأخبار التونسية للوزير السراج ٠ تونس 1970 الجزء الرابع ص 825 ٠٠٠)

(19) سبق التعريف به ، انظر التعليق رقم 10 ٠

(20) لم نعثر على ترجمة له ، ولم نتمكن من معرفة اسمه الكامل ٠

(21) قد تكون « السيدة المنوبية » (انظر التعليق رقم 13) ، ويدعم ما ذهبنا اليه ذكر الكاتب لنسبها الشريف « من نجل النبى الكريم » ، وما ورد من تجديد زاويتها مع زاوية البشير (انظر اعلاه)

(22) يدل هذا المصطلح على ما يكتب فى تعداد فضائل الاولياء (انظر مناقب أبى اسحق الجبنيانى ومحرز بن خلف » تحقيق هادى روجى ادريس ٠ تونس 1959 ٠ المقدمة)

(23) نذكر من ذلك ما ألف من مقامات حول بناء المدرسة الباهية (1160/1747) وتعداد مناقب أحمد الباهى وابنه اسماعيل ، ومنها مقامة محمد الورغى

ـ التغنى بجمال الضريح ، او المدرسة ، أو المسجد مع التطرق لوصف المدينة ، ويأتى ذلك فى أسلوب متميز يعتمد المبالغة والاقتباس القرآنى خاصة

ويستعمل الكاتب شكلا قصصيا كأن يبدأ المقامة بالتجوال والرحلة حتى يبلغ مقام الولى ، أو يدير حوارا قوامه التجاهل ليفسح المجال فى رد الناس عليه لتعداد محاسن الولى ، والتعريف به ·

وقد سلك ابن أبى الضياف هذه الطريقة ، لكن الجانب الأدبى عنده ضعف ، فالخيال الفنى ، أو الحبكة القصصية ، او البراعة اللفظية (وبعض ذلك أو كله متوفر فى المقامات التى اطلعنا عليها) تتضاءل ، فيبدو غالب المقامة أجوف (24) ·

وهو يستعمل فى كامل المقامة لغة خاصة هى لغة أهل الطرق والزوايا ، ويعكس ذلك انتشارها فى ذلك العصر ، وتأثيرها فى ابن أبى الضياف خاصة . والملاحظ أننا نجد صدى لهذا التعظيم والمدح للأولياء فى (اتحاف أهل الزمان (25)

(كتاب « مقامات الورغى » المذكور اعلاه ص ص 41 ـ 54 ، وقد وقع التعليق عليها وعلى المناسبة فى مقال « حول مقامات الورغى » المذكور أعلاه ص ص 31 ـ 35) ومقامات على الغراب (« ديوان الغراب » المذكور أعلاه ص ص 331 ـ 342) وأحمد بن منصور (مخطوطة) ، ويوسف الحفنى ، وأهمها مقامة أحمد هويدى (وكلتاهما ضائعة)·ويذكر ابن ابى الضياف كتابا جامعا لهذه المقامات (الاتحاف الجزء السابع ص 120) ·

(24) انظر مثلا وصف الكاتب لزاوية الولية (الورقة 2 ب من المخطوط) أو النظم المدرج فى نهاية المقامة ·

(25) يظهر ذلك فى مواضع عديدة ،منها موقف الكاتب من رسالة محمد بن عبد الوهاب الداعية الى منع زيارة القبور والتقرب من الاولياء (الاتحاف الجزء الثالث ص 60) ، واستنكاره لموقف محمد باى عندما افتك عطايا سلفه من الولى عمر عبادة بالقيروان معتبرا ذلك « أحدوثة » (الاتحاف الجزء الرابع ص 200)
ولمزيد من التوسع انظر مقال « الأولياء والصالحون فى اتحاف أهل الزمان » لرياض المرزوقى بمجلة (الفكر) أكتوبر 1974 ص ص 33 ـ 48 ·

وفى المقامة جانب يبدو ثانويا ، ولكنه فى الواقع هام ، لما أسلفنا من ارتزاق الكاتب من وظيفة الكتابة عند تأليفه للمقامة (26)

وقد ربط بين ذكره لمناقب الأولياء وفضائل ممدوحه بالتأكيد على موقف حسين باى من الدين ، فهو غيور عليه ، محام عنه ، متعلق بتشييد مقامات الاولياء • ويضيف الى ذلك عناصر المدح التقليدية من كرم وحلم وشجاعة ••، بل يأتى أثناء ذلك بصور مغرقة فى التقليد كتشبيه الكرم بالسحاب الممطر ، او الحلم بالبحر ، وينقلب هذا المدح دعاء بالنصرة والتوفيق يغلب عليه التكلف (27)

ومما لا شك فيه أن المقامة قالب أدبى يقصد فيه الى اللفظ قبل كل شىء ، والجانب الشكلى أهم ما يعتنى به الكاتب (28)

وقد استعمل ابن ابى الضياف ما يستعمله كتاب المقامة عادة من وصف دقيق ، واكثار من التشابيه والصور والمعانى الخفية ، والسجع ، وفنون البديع وخاصة التورية والاقتباس من القرآن ، ومزج النثر بالشعر •

لكن الملاحظ أن لغة الكاتب تضعف أحيانا ، وتميل الى العامية أخرى • ويبدو ذلك فى النظم المدرج فى المقامة ويتمثل فى قصيدتين قلت الابيات السليمة منهما •

فهل يعود ذلك الى شباب الكاتب وقلة تمرنه ؟ أم الى طابع بدأ يسود أدب العصر خاصة وقد لاحظنا اشتغال ابن أبى الضياف بالنظم العامى (29) وعلى كل ، فالمقامة فى حد ذاتها ليست أثرا ادبيا هاما ، وليست لها قيمة تاريخية كبرى ، لكنها تمثل مصدر دراسة بالنسبة لأسلوب العصر او بالنسبة لشخصية ابن ابى الضياف ، وتطور طريقته فى الكتابة •

---

(26) سبق الحديث عن ذلك • انظر التعليق رقم 15 •

(27) انظر آخر الورقة المخطوطة 3أ • وأول الورقة 3ب •

(28) انظر فى ذلك دائرة المعارف الاسلامية فصل « مقامة » ، وفن القصة والمقامة لجميل سلطان دمشق 1934 ـ والتعليق رقم (17) من هذا المقال •

(29) انظر النقطة الاخيرة من جدول أشعاره المخطوطة المذكور أعلاه ، والملاحظ أن بعض المقامات التى عاصر اصحابها ابن أبى الضياف طغى عليها الاسلوب العامى وتكاثرت فيها أخطاء اللحن ، مثال ذلك : مقامتا محمد (أو أحمد) الدالى•مخطوط بمكتبة حسن حسنى عبد الوهاب رقم18303

المقـامة الجليـة (نموذجان) (30)

أ ـ وصف الولى (البشير) (31) :

٠٠ وبعد فيقول فقير خفي الألطاف ، الراجي هدايته أحمد بن أبي الضياف ، يا أدباء الزمان ، وبلغاء المكان ، احضروا القلب الى القبول ، وألقوا الاسماع لما نقول ، إن أحسن ما نطق به اللسان ، وأعذب ما سمعته الآذان ، وروق الأفكار ، وفتق الازهار ، ما روى ابو الفرح والانوار ، عن أبي السعادة والاسرار (32) قـال :

كنت بالظعن الى البلاد موصوفا ، وبزيارة أوليائها (33) معروفا ، فبينمـا البلدان تلفظني ، والامواج تقذفني ، حتى (34) بلغت (35) تـونس الخضـرا . فقلت لقلمي بشرى ، فأول من عرض لي ، الشيخ الولي (36) ، ذو السر الجلي ، والمقام العلي ، سيدى (37) أبو الحسن الشاذلي ، فدخلت لذلك المقام فوجدته على أحسن نظام ، ثم خرجت لزيارة (38) بعض القبور ، لتتضاعف لي الأجور ، فدخلت من باب العلاوة (39) وقت الصبوح ، و (40) ألفيت تلقاءه نورا يلوح ، فصرت أمسى (41) وبالحب أهيـم ، فصفعنـى (42) نـور عظيم ، وصـرت ساعيا (43) على الالحاظ ، وذلك النور الفياض ، فوجدته في مكان كأنه فلق ،

---

(30) هدفنا من ايراد هذين النموذجين تدعيم ما ذهبنا اليـه فى التحليـل ، واعطاء القارىء فكرة حول هذه المقامة ٠

(31) المخطوط الورقة 1ب الى الورقة 2أ ٠

(32) من التعابير الصوفية ومفردات لغة أهل الطرق وهي كثيرة في المقامة ٠

(33) نهاية الكلمة ممحوة فى الأصل ٠

(34) خلل فى التركيب لعل صوابه تعويض (بينما) بـ (ما زالت)

(35) بعض المحو فى الكلمة ٠

(36) بعض المحو فى الكلمة ٠

(37) فى الأصل : سيد ٠

(38) بعض المحو فى الكلمة ٠

(39) بعض المحو فى الكلمة ٠

(40) زيادة اقتضاها انعدام الربط فى الأصل ٠

(41) بعض المحو فى الكلمة ٠

(42) تعدية فعل (سطع) بنفسه عامية ٠

(43) فى الأصل : ساع ٠

بل شمس الضحى فى الافق ، منجل (44) حسنه مبتهج ، معتبق (45) طيبه مؤترج ، تكتسب منه المزايا الغزار ، ويتصدق بالأسرار ، فقلت : لمن ذا المقام الكامل ؟ قال الحاضر : عجبا تعلم وتتجاهل ؟ فقلت : لا وحق الملك القدير ، قالوا : وهل يكون لغير السالك البشير (46) المشهور عند الصغير والكبير ؟ فلما سمعت هذا المنطوق ، علمت (47) بأنه (48) المشهور عند كل المخلوق ، ثم جلت فى ميادين الحب والافتتان (49) ، وقلت : ليس الخبر كالعيان ، فوجدت شمس الزوايا ، ذات المحاسن والمزايا ، قد تعلت على الفجر (50) ، وجاد بها الدهر ، ممتزجة بتقوى الله ، وممتلئة بأولى الجاه (51) ،

يزينك وجهها اذا نظرت له كأنه السعد أو كوكب الدر (52)

فناهيك برونقها وحسنها ، وترنم طير الفصاحة عند رؤيتها ،

وقادت على أعلى العوالى بثغرها بشيرنا ذا (53) العلم والسر (54)
ذاك الامام العالم عابد كرامته أجلى من الصبح والفجر (55)

---

(44) لعلها : متجل .

(45) فى الأصل : معتبقا .

(46) فى الاصل : البشر ، وفى الكلمة تورية بين اسم الولى وفكرة توقع الخير .

(47) الكلمة ممحوة محوا تاما فى الأصل .

(48) بعض المحو فى الكلمة .

(49) الكلمة ممحوة محوا تاما فى الأصل .

(50) فى الأصل : البحر ، وربما كان المقصود : البدر .

(51) يغلب على العبارة المعنى العامى أى الأولياء .

(52) يبدو أن الجملة فى الأصل بيت شعرى على البحر الطويل ، كما سيظهر من الجمل الموالية ، فالشطر الثانى منها يستقيم وزنه اذا اضفنا كلمة « نجم » مثلا قبل كلمة « السعد » فيصبح الشطر : .. كأنه [نجم] السعد أو كوكب الدر .

(53) فى الأصل : ذو .

(54) الشطر الأول من الجملة موزون

(55) الشطر الثانى من الجملة موزون

يكفيك (56) من هذا مقامه ، ومن أراد الحصر يجعل العد كلامه،اذ فضائله كالقطر والشمس ، وفضيلة اليوم تنسيك فى فضيلة امس ، ومن جملة الكرامات فريدة العصر ودرة الدهر ،

فجاءت بفضل الله لحظة صالح على وفق مااختار أولو القدروالسر(57)

ب ـ مدح حسين باي : (58)

فقلت (...) : ومن انشأها (59) ؟ قالوا : أسسها (60) على التقوى ، وجعلها للعلماء مأوى ، الملك الكريم ذو (61) الجود (62) العميم ، والعماد الذى أقام به الله الدين ، ونصر به المسلمين ، مشابه (63) السلاطين (64) ، الشهير المناقب ، العلى المراتب ، ذو المآثر المحموده ، والمساجد المقصوده والرايات المنصوره ، والآيات المنشوره (65) ، والشجاعة المشهوره ، من أعلى قيمة الصالح والعالم ، الشامل (66) ذكره العالم ، من الجود من كفه سائل لكل الأقطار ، وبحر حلمه يضاهى (67) البحار ، من به الزمان جاد على الايام ، فصارت ايامه كعلم الاعلام (68) ، وما من معال (69) الا وهو متوليها ، وما من شيعة الا طار

---

(56) الكلمة ممحوة فى الأصل .

(57) من البحر الطويل .

(58) المخطوط : آخر الورقة 12ب الى الورقة 13

(59) يقصد الزاوية .

(60) الكلمة ممحوة فى الأصل .

(61) فى الأصل : ذى .

(62) هنا تمزيق فى المخطوط .

(63) بداية الكلمة ممحوة فى الأصل .

(64) يبدو انه يقصد بهذه الكلمة : سلاطين آل عثمان .

(65) بداية الكلمة ممحوة فى الأصل .

(66) الكلمة ممحوة فى الأصل .

(67) الكلمة ممحوة فى الأصل ما عدا الحرف الاخير .

(68) الكلمة ممحوة فى الأصل .

(69) فى الأصل : معالى

اليها ، وما من فضل (70) الا وله فيه اليد الطولى ، بل هو احق به واولى ، وما هذه (71) الزاوية الفريده ، ذات المحاسن العديده ، الا دفعة من بحره ، ونبذة (72) من بره ، يكل عن وصفه القرطاس والقلم ، وتعجز عن مدحه العرب والعجم ، والاطناب فى غيره محل (73) ، وفى حقه مخل ، اذ لو اتفق (74) كل ذى لسان ، على عد أجناس فضائل هذا السلطان ، لا يكون أحد فيهم قديرا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (75) ، هذا وشيمته جبر الكسير ، وفك الاسير ، وفعل الخيرات ، وبذل الاوقات (76) ، معلى الحق ومشيد أعلامه ، ومدحض الباطل وهادم (77) بنيانه ، وكل علية له تركع ، وكل مزية له ترجع ، المستفاد (78) المعلوم عند كل حين ، سيدنا حسين باى (79) ، الذى (80) سحابه موصوف بالرى ، قالوا : وهل توجد هذه الصفات فى (81) انسان ؟ قلت : وهل له ثان ؟ ..

ر. م.

---

(70) « وما من فضل » ممحوة فى الأصل .

(71) الكلمة ممحوة فى الأصل .

(72) بداية الكلمة ممحوة فى الاصل

(73) المحل : من لا عهد له ، منتهك الحرم .

(74) بداية الكلمة ممحوة فى الأصل

(75) قرآن : الآية 88 من السورة 17 (الاسراء) .

(76) بداية الكلمة ممحوة فى الاصل .

(77) الكلمة ممحوة فى الاصل .

(78) الكلمة ممحوة فى الاصل عدا الحرفين الاخيرين

(79) تخضع كلمة « باى » حسب السجع الى النطق التونسى وهو « بى » .

(80) بداية الكلمة ممحوة فى الاصل .

(81) « فى » ممحوة فى الاصل .

النضال والثورة

في ادب الطاهر الحـــداد*

بقلم : أحمد خالد

الثلث الاول لهذا القرن بتونس ــ لا سيما مدة ما بين الحربين العالميتين ــ حافل بالنضال والثـورات ، زاخـر بقادة الفكر مـن الصحافييـن الايقـاظ والسياسيين الحازمين والادباء الملتزمين الذين يطول ذكرهم فى هذا البحـث فحسبى كشاهد على نضال ذلك الجيل البطولى أن أعرف بمواقف وأعمال أديب مفكر مصلح آمن بأن الالتزام قول وعمل فكانت كتاباته نوافذ مفتوحة عـلى البيئة التونسية التى تفاعل معها فى الثلث الاول لهذا القرن بالتأثر والتأثير وكانت مشاريعه الاصلاحية التى تضمنها انتاجه الشعرى والنثرى منبثقة من واقعه مسلطة أضواء على مجتمعه مستهدفة تطوير هياكله وتحسين أوضاعه فى زمن معاناة الشعب التونسى ويلات الاستعمار التوطينى كالتفليس والتجهيل والتجنيس وكبت الحريات ومحاولة القضاء على مقومات الشخصية التونسية العربية الاسلامية واذابتها فى شخصية الدولة « الحامية » بمعنى المستعمرة .

ذلك الاديب المناضل الذى طرح تصوره لعلاج مشاكل مجتمعـه بالشعـر والمقالة والكتاب فى العشرينات والثلاثينات هو الطاهر الحداد (1899 ــ 1935) (1) . فهذا الاديب يندرج فى زمرة قادة الفكر والسياسة من الشباب الرافض للقديم بشتى مظاهره المتمرد على الواقع المر الاليم بمناخه الثقافـى المتـدلى وأوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية السيئة .

وقد نشأ الطاهر الحداد فى وسط شعبى متواضع لا يعرف العيش الا بعرق الجبين وتلقى منذ طفولته المبكرة ــ على غرار أقرانه ــ تعليما دينيا فى الكتاب

(*) هذه الدراسة قدمها الاستاذ أحمد خالد فى المؤتمر العاشر للادباء العرب الذى انعقد بمدينة الجزائر من 25 الى 27 أفريل 1975 .

(1) راجع ما كتبته عنه وعن بيئته مفصلا فى كتابى « الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول لهذا القرن » ط . الدار التونسية للنشر تونس 1967 .

القرآني ثم ازدادت ثقافته الدينية رسوخا مع الايام بتردده على المدرسة « الخلدونية » وجمعيتها والنادي الادبي لقدماء الصادقية وباختلافه على حلقات الدرس فيجامع الزيتونة الذي التحق به فيظروف فاجعة وطنية أيام معركة الزلاج ومجازرها في سنة 1911 (1) ثم تخرج منه محرزا شهادة التطويع في سنة 1920 وتوثقت ثقافته العامة وتفتحت آفاقه بالمطالعات الخارجية التي نعتقد أنها كانت كثيرة ومتنوعة وكذلك بالاتصال برجال السياسة والادب كالشيخ عبد العزيز الثعالبي ومحمد علي الحامي والطاهر صفر وأبي القاسم الشابي ومحمود بيرم التونسي · وأفاد معلومات قضائية عصرية من دراسة القانون في مدرسة الحقوق التونسية التي دخلها عقب تخرجه من الزيتونة · غير أنه انقطع عن متابعة الدروس بها سنوات عديدة بعد نجاحه في امتحان السنة الاولى فتوجهت همته الى النشاط السياسي والنقابي والاصلاحي بمختلف أنواعه والى الكتابة الهادفة طوال عشر سنين ما بين سنتي 1920 و 1930 · وفي ذلك العام الاخير منع من اجتياز امتحان شهادة الحقوق بأمر من مدير العدلية ·

عرف الطاهر الحداد الشيخ عبد العزيز الثعالبي وهو صديق الزعيم علي باش حانبة ومساعده في حركة الشباب التونسي التي قضي عليها بعد معركة الزلاج وحوادث « الترمفاي » بالعاصمة وهو مؤسس الحزب الحر الدستوري (القديم) · والى هذه التشكيلة الحزبية الوطنية الثانية بعد حزب الشباب التونسي انضم الحداد فور تأسيسها فكلف بنشر الدعاية لها ثم انسحب منها عندما انزلقت لجنتها التنفيذية سنة 1925 في مكيدة المقيم العام « لوسيان سان » وتبرأت من محمد علي الحامي وجماعته الذين قادوا حركة اشتراكية تعاونية أفضت بهم الى تنظيم العمال التونسيين في أول جامعة نقابية قومية فكان الطاهر الحداد نصير محمد علي ومؤسستيه « جمعية التعاون الاقتصادي التونسي » و « جامعة عموم العملة التونسيين » وعضده الايمن بمواقفه وأعماله ومقالاته الصحفية الجريئة · ثم ألف تخليدا لذكرى تلك الحركة كتابه « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية · » (2)

---

(1) راجع الوثائق الصحفية عن تلك المعركة في كتاب « معركة الزلاج » للجيلاني بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقي ــ ط· مكتبة المنار ــ تونس 1961

(2) أ ــ الطبعة الاولى للكتاب بمطبعة العرب ــ تونس 1927

ب ــ أعيد طبع الكتاب مرتين بالدار التونسية للنشر في سنة 1966 ثم سنة 1972 ·

وبعد مديدة قضاها الحداد مفكرا فى أسباب خيبة حركة محمد على ارتأى أن الوعى الجماهيرى ما بلغ بعدفى زمانه درجة كافية يستطيع بها شعبه أن يتقاوى على قوى الشر والظلام وعلى الاستبداد بمختلف أنواعه فتصور علاجا جذريا لتخلف المجتمع بتقديم مشروع اصلاح اجتماعى وثقافى واقتصادى قطب مداره اصلاحات اقترحها للاحوال الشخصية التى تيسر ترقية الاسرة وهى الخلية التى من نظرائها يتكون الهيكل الاجتماعى وبسلامتها يسلم ٠

ويثبت البحث أن تفكير الحداد فى ترقية المرأة وفى تنظيم الاسرة بدأ يخامر ذهنه مذطفق يجمع الوثائق ويلاحظ بعض ما يجرى فى بيئته داخل البيوت وخارجها بكل دقة ليحرر المقدمة الثانية بعنوان « الحالة الاجتماعية والاقتصادية بتونس » لكتابه « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » المطبوع لاول مرة فى سنة 1927 (1) وقد سارعت ادارة الامن الى حجز ما وجد من نسخه فى مطبعة العرب فى أوائل شهر جانفى من سنة 1928 ٠ وفى تلك السنة نشر الحداد سلسلة من المقالات فى جريدة « الصواب » ليدافع بها عن المرأة التونسية دفاعا جريئا ذكيا فجاءت مقالاته التى عالج بها وضعية المرأة التونسية آنذاك معمقة حتى أنه ضمها بعد سنتين الى كتابه (2) « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » وقد حرر مقدمته فى سنة 1929 ثم أصدره تاما فى السنة الموالية فأثار به الضجة الكبرى التى تواصلت حملتها المسعورة المغرضة ضد شخصه وآرائه مدة طويلة وتجاوزت الحدود التونسية الى الجزائر والمشرق العربى (3) ثم أثيرت من جديد فى ظروف انشطار الحزب الحر الدستورى الى قدامى ومنشقين عنهم جدد فى مارس 1934 وذهب خصوم الحداد الى تلحيده وربطوا اسمه بأسماء أولئك المنشقين محمود الماطرى والطاهر صفر والحبيب بورقيبة والبحرى قيقة وغيرهم من مؤسسى الحزب الحر الدستورى (الجديد)

---

(1) راجع كتاب ـ « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » ط ٠ 1927 ص 25 ـ 26

(2) جريدة « الصواب 6 ـ و 13 ـ و20 جويلية ـ 17 و31 أوت و14 و28 سبتمبر و19 أكتوبر 1928

(3) راجع الباب السادس « الخصومة حول كتاب امرأتنا فى الشريعة والمجتمع ومؤلفه » فى كتابى « الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين » ص 309 ـ 414 ٠

(١) الذى تسمى فى سنة 1964 حزبا اشتراكيا دستوريا لما تقررت التجربة التعاضدية التعاونية • ومن المفيد أن نذكر بأن خصوم الحداد استحضروا اسمه فى كتاباتهم المناهضة فى سنة 1956 لـ « مجلة الاحوال الشخصية » (2) التى أعتبرها تقنينا تشريعيا وقضائيا عصريا لجل الآراء الاصلاحية الواردة فى كتاب الحداد « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » • (3) ولم يكن التطابق بين المجلة والكتاب من قبيل الصدفة اذ يعترف الحبيب بورقيبة المبادر بسن قوانين مجلة الاحوال الشخصية فى فجر استقلال البلاد بتأثره بالطاهر الحداد منذ سنة 1930 • (4)

عرفت الآن صورة سريعة مقتضبة لذلك الاديب المفكر الذى تفاعل مع مجتمعه بالتأثر والتأثير وسخر أدبه لطرح تصوره لعلاج مشاكل قومه فقبل مجتمعه شيئا من آرائه فى العشرينات والثلاثينات وقابل آراء أخرى له ثورية بالرفض لاسباب عديدة • لكن افكاره المرفوضة أو المعدول عنها آنذاك لا سيما ما يتصل منها بالتعاونيات فى مشروع التنظيم الاقتصادى وباصلاح الاحوال الشخصية وبترقية المرأة العربية المسلمة وجدت مناخا ملائما لمحاولة تطبيقها أو لتطبيقها بصفة عملية آنية ومستقبلية منذ فجر الاستقلال او فى السنوات الاولى التى تلته بعد ثلث قرن من جهر الحداد بها ولم تكن له وحده فى الحقيقة وانما شاركته فى عديد منها سواء كانت مجتمعة أو متفرقة ثلة من قادة الفكر والسياسة أمثال محمد على الحامى (5) والطاهر صفر (6) وأبى القاسم الشابى

(١) أحمد خالد « أضواء على الخلفية التاريخية لمجلة الاحوال الشخصية الصادرة سنة 1956 » مجلة الفكر مارس 1974 ص ص 58 — 74 •

(2) نفس المرجع

(3) راجع المقال السابق — وفى امكانك أن تقارن بين كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » للحداد وكتاب محمد الطاهر السنوسى « دائرة التشريع التونسى — مجلة الاحوال الشخصية » — نصوص وتعليق — الطبعة الرابعة — تونس 1964 •

(4) راجع المحاضرة الرابعة عن تاريخ الحركة القومية — جريدة « العمل » 11 نوفمبر 1973 ص 8 •

(5) راجع أحمد خالد : «محمد على الحامى» ط • الدار التونسية للنشر 1968

(6) الطاهر صفر « الاقتصاد السياسى » سلسلة كتاب البعث — المطبعة العصرية بتونس مارس 1958 • والكتيب هو نص المحاضرة التى ألقاها الطاهر صفر صديق الحداد ومحمد على ومعاضدهما فى « جمعية التعاون الاقتصادى التونسى » بقاعة الخلدونية فى سنة 1929 •

(1) وغيرهم في حين انفرد العديد من الافكار الاخرى التى جهر بها الحداد بطابع الريـادة والتجديـد فلم يسبقـه اليهـا سابـق من نصراء ترقية المرأة سـواء فى شرقى العالم العالم العربى كقاسم أمين (2) أو فى غربيه وبتونس خاصة مع محررين فى جريدة « الحاضرة » وجريدة « الصواب » ومجلة « خيـر الديـن » وغيرها (3) وكان للزعيم الحبيب بورقيبة فضل السبق الى تطبيق مشاريع اصلاحية ثقافية واقتصادية واجتماعية حلم بها وناضل من أجلها الطاهر الحداد والشباب البطولى من جيله الذى تلاحمت صفوف أدبائه المجددين وقادته السياسيين الجريئين حتى أن الادب عندهم والسياسة أصبحا متكاملين وربما ممتزجيـن متحدين كما تشهد بذلك شخصية الطاهر الحداد الذى جمع فى مشاغله الادبية الاصلاحية بين السياسة والاقتصاد والعمل النقابى والاجتماعى .

مفهوم الادب عند الحداد :

لو ربطت الحداد بمناخه الثقافى لتبينت أنه يتصل بسنة أدبيـة نضاليـة تعتبر الكتابة « رسالة حضارية » توضح للناس سبل الانعتاق من القيـود المجحفة بشتى أنواعها . فمن عصر محمود قابادو (1912 — 1871) (4) وهو

---

(1) راجع أحمد خالد كتاب « شخصيات وتيارات » مطبعة الشلى سوسة 1970 فصل « الشابى والمرأة » ص ص 98 — 108 .

(2) أ — قاسم أمين « أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ » ط . الاسكندرية 1913 .

ب — قاسم أمين « تحرير المرأة » ط . القاهرة 1899 .

ج — قاسم أمين « المرأة الجديدة » ط . القاهرة 1936 .

د — الدكتور ماهر حسن فهمى « قاسم أمين » سلسلة أعلام العـرب — مطبعة مصر 1343 هـ

(3) راجع فى كتابى « الطاهر الحداد والبيئة التونسية » الباب الرابع « أهم أطوار معركة السفور وتعليم المرأة وتحريرها فى تونس » ص ص 203 — 268 .

(4) راجع أ — ديوان محمود قابادو ، المطبعة الرسمية تـونس (1295 هـ : 1879 م) فى جزءين

ب — زين العابدين السنوسى « محمود قابادو » مطبعة العرب — تونس 1955 .

شاعر معاصر لخير الدين باشا التونسي (1820 ـ 1889) (1) رائد الحركة الاصلاحية قبل انتصاب الحماية الفرنسية في تونس بربع قرن الى عصر الطاهر الحداد المنتمي الى الجيل البطولي الذي قدم لبلاده أجل الخدمات والتضحيات وغذى الحركة الوطنية بنفس جديد تدرج الادباء المتمسكون بالسنة النضالية من استخار الرسول والاولياء لينقذوا تونس من المصائب (2) الى الاستعداد الواعي للمستقبل بالكشف عما في أعماق الشعب من منابع القوة وبتوعية الجماهير ومخاطبتها مباشرة لتتقاوى على ضعفها وتثور على المستبدين بأمرها وتتحرر من الاصفاد التي تعرقل مسيرتها الحضارية ٠

وينتمي أديب ذائع الصيت من جيل الحداد هو أبو القاسم الشابي الى تلك السنة النضالية فيرتبط أدبه بمناخ ثوري يكسبه ابعادا رسالية لا تستهدف الفن للفن الا عرضا وانما تستغله خاصة لبلوغ غايات انسانية حضارية يسميها الشابي « رسالة الدنيا » (3) ويعني بها مثل صديقه الحداد بذر « ارادة الحياة » في الشعب وهي أحسن درس في العبادة لو جازت عبادة أخرى غير عبادة الله كما يقول عبد الرحمان الكواكبي في كتابه « طبائع الاستبداد » ٠ ألا ترى أن الحداد قد اعتبر « ارادة الشعب مراد السماء » في قصيد له بعنوان «طال بنا النوم» وجاراه في نفس المعنى أديب تونسي آخر مناضل هو سعيد بوبكر (1899 ـ 1948) (4) لما اعتبر ارادة الحياة « سعيا الى السماء » في قصيد له بعنوان « الشرق والسماء » (5) وجانسه في التغني بارادة

---

(1) راجع كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » ط ٠ تونس 1968 ٠

(2) راجع في هذا المعنى عينات من كتاب جيد لمحمد صالح الجابري « الشعر التونسي المعاصر 1870 ـ 1970 » ط ٠ الشركة التونسية للتوزيع 1974 ص ص 25 ـ 28 ٠

(3) راجع أحمد خالد « من الغربة الى الثورة : الغربة في أدب الشابي ـ مفهومها وأبعادها » مجلة الفكر جانفي 1975 ص ص 54 ـ 76 ٠

(4) راجع في كتابي « شخصيات وتيارات » فصلا بعنوان « سعيد بوبكر وغربة جيل » ص ص 43 ـ 68 ٠

(5) راجع « السعيديات » ديوان سعيد بوبكر ـ المطبعة الاهلية ـ تونس 1927 ص ص 22 ـ 24 ٠

الحياة عديد من أدباء جيله مثل مصطفى خريف (1909 ـ 1967) (1) و محمود بيرم التونسي (1893 ـ 1960) (2) فى مقالاتـه وفى أشعـاره التى نشرهـا بجريدة « الزمان » وفى جريدته الخاصة « الشباب » التى أعاد اصدارها فى تونس ثم فى صحيفتى « السرور » و « السردوك » طوال اقامته من سنة 1932 الى سنة 1937 فى تونس موطن آبائه الاول كما يظن وكان دخوله الى تونس فى مدة اغترابه منفيا بفرنسا بعيدا عن وطنه الثانى مصر بقرار مـن الملك فؤاد الذى ضج بلذعات محمود بيرم . فلما حل هذا الاديب الثائـر بتونس بدعوة ملحة من الشاب المناضل محمد بدره تأقلم فى بيئته الجديدة وقضى خمس سنين بها يناضل بالحرف ويساهم فى ايقاظ الضمائـر مـع الشباب المفكر المتمرد من جماعة تحت السور وتعرف آنذاك على الطاهر الحداد وتعاطف معه حسب شهادة الشاعر مصطفى خريف فى مجلة « الفكر » (ماى 1958) .

وكانت الدعوة التى توجه بها الطاهر الحداد وأبو القاسم الشابى وسعيد بوبكر ومحمود بيرم وثلة أخرى من الجماعة التى كانت ترتاد منتدى « البانكه العريانة » بمقهى باب منارة ثم اعتزلت حلقة الشيخ العربى الكبادى لتنتدى بمقهى « تحت السور » خطرة على الجامدين الخادرين لانهـا أزعجتهم وكـدرت نومهم فى مناسبتين على الاقل أولاهما عندما ألقى أبو القاسم الشابى بيانـه الادبى ذا الابعاد السياسية « الخيال الشعرى عند العرب » (3) على مسامع أدباء تونس بقاعة الخلدونية سنة 1929 فأثار به مهاترات بلغت حد اتهامـه

(1) راجع أ ـ ديوانه « الشعاع » طبع مطبعة المنار بتونس 1949
ب ـ ديوانه « شوق وذوق » طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم 1965 .

(2) أ ـ مذكرات بيرم التونسي ط . الدار التونسية للنشر 1972
ب ـ راجع فى كتاب محمد صالح الجابرى « الشعر التونسي المعاصر 1870 ـ 1970 » فصلا قيما عن محمود بيرم ص ص 311 ـ 342 .

(3) الشابى « الخيال الشعرى عند العرب » الطبعة الاولى بمطبعة العرب سنة 1929 والطبعة الثانية بالشركة القـومية للنشـر والتوزيـع ـ تونس 1961 .

بالمروق من الدين (1) وهي نفس التهمة التى ألصقها الجامدون المغرضون بصديقه الحداد عندما جهر بمشروعه الاصلاحي المتعلق بالاحوال الشخصية وبترقية المرأة والاسرة والمجتمع فى كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » (2)

وكذلك كان تغنى الادباء التونسيين الايقاظ المتحملين مسؤولية الرسالة الادبية بالشعارات الوطنية وبارادة الحياة خطرا على الوجود الاستعماري اذ كشفوا للشعب عن فضائح المستبد بأمره وحثوه على عصيانه تصريحا وتلميحا فسخطت ادارة الحماية على الادباء المتمردين وتنبهت لخطورة الكتابات الادبية الهادفة كما فى الفصل « أشعار دستورية » من مجلة « افريقيا الفرنسية » لسنة 1927 عقب صدور ديوان « السعيديات » لسعيد بوبكر . (3) وقد سارعت ادارة الحماية الى حجز كتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » للطاهر الحداد درءا لخطره . ولكن معاملة ادارة الحماية ومتملقي نظامها لمحمود بيرم كانت أقسى من التنبيه والتحذير وحجز النشريات . فلما عيل صبرها وصبرهم بلذعات قلمه أصدرت ادارة الامن أمرا اليه يوم 17 أفريل 1937 بمغادرة موطنه الجديد وأرض آبائه من قبل حيث استقر لمدة خمسة أعوام توهم أثناءها أن له حق الصدع بصيحة الحر على غرار الشباب اليقظ من الشعب التونسي الذى أحبه بيرم وتآلف معه . وقد لقى محمود بيرم فى النهاية نفس المصير الذى آل اليه محمد على الذى حكم عليه بالتغريب خارج وطنه فى فيفرى سنة 1925 .

---

(1) راجع أ) محمد الحليوى « رسائل الشابى » ط . دار المغرب العربى ـ تونس 1966 ص 83

ب ـ محمد الصالح المهيدى « الخيال الشعرى عند العرب » فصل فى مجلة « الندوة » تونس ـ أكتوبر 1953 ص 17 .

ج ـ محيى الدين القليبى « النقد والتأليف عندنا » مجلة «العالم الادبى» تونس جانفى 1930 .

د ـ محيى الدين القليبى « الخيال الشعرى عند العرب » مجلة « العالم الادبى » ماى 1930 .

(2) ـ الطاهر الحداد « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » الطبعة الاولى بالمطبعة الفنية .

ب ـ الطبعة الثانية بالدار التونسية للنشر 1973

(3) A L'Afrique Française — Chronique de Tunisie » — Août 1922 —
«oût 1928:» Poésies Destouriennes » Septembre 1927

أما الطاهر الحداد فقد أفضت به مسيرته النضالية فى آخر حياته الى اغتراب فكرى وروحى بين أهله وذويه على أديم وطنه وتلك الغربة لعمرى أشد من العقاب السياسى بالسجن المادى وراء القضبان فى مسلك النضال • وقد كان المسلك الاول للحداد سياسيا حزبيا مدعما بقصائد ومقالات صحفية نشرها بجريدة « الامة » و « لسان الشعب » و « الصواب » و « افريقيا » (1) وكان مسلكه الثانى اقتصاديا تنظيميا ثم نقابيا مبشرا بأسلوب فى النضال جرىء خرج بالقضية الوطنية ـ ولو الى حين ـ من المنتديات الضيقة ومن التعثر الذى صادف تلك القضية لقصور الدستوريين القدامى الذين اكتفوا بتقديم العرائض وانتظروا عطف الحكومة الفرنسية عليهم فلم يأت واذا بمحمد على يجوب البلاد مع رفاقه فى النضال ويتصل بالجماهير الكادحة ويعقد الاجتماعات ويوجه الاضرابات • وقد دعم الحداد مسلكه النضالى الثانى بمنشورات ومساجلات صحفية وجولات ثم بكتاب « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » • وكان مسلكه الثالث والاخير اجتماعيا متضمنا مشروعا اصلاحيا للاحوال الشخصية وشؤون الاسرة • وقد دعم الحداد مسلكه الثالث بعديد من المقالات وبكتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » فامتد قلمه الى مواضيع حضارية مصيرية شغلت باله وبال الادباء الشبان المجددين فألف ونظم الشعر لا لتزجية الفراغ بأدب التملق كالمدح والتهانى بالمناصب وبتوافه مناسبات الزفاف والختان والولادة وكالمعارضات الشعرية التى راجت سوقها فى الثلاثينات ومن قبل على صفحات بعض الجرائد والمجلات فظهر التشطير والتخميس والتسبيع (2) •

وتدرك من اطلاعك على آثار الحداد وعلى مواقفه وأعماله أنه يعتبر الادب الرفيع مواجهة بليغة لقوى الشر والظلام ودعوة مستحثة على التحرر من القيود المجحفة المعرقلة لتقدم الانسان. ولافرق عنده فى المجتمع المتخلف المفتقر الى من ينير له السبيل بين الاديب ورجل الفكر والمثقف والسياسى لان واجبهم جميعا ان « يتوحدوا » مجتمعهم بخدمته وواجب الاديب بالاخص أن يوفق بين الابداع الفردى والابداع الاجتماعى • والرأى عنده أن البلاد المتخلفة

---

(1) راجع على سبيل المثال للطاهر الحداد سلسلة مقالات بعنوان واحد « نحن وأخصامنا أمام الرأى العام » 15 جويلية و12 و26 أوت 1921 فى جريدة « الصواب » •

(2) انظر محمد صالح الجابرى « الشعر التونسى المعاصر » ص 89 وما بعدها •

تحتاج أكثر من غيرها المتقدمة الى جهود أبنائها الملهمين القادرين على استيعاب مشاكل الناس وتصور الحلول لها وعلى النفاذ الى قلوبهم لتحريك العزائم برعشة الفن وبلاغة الحرف واشراقة الرؤى المستقبلية اذ الادب عنده ليس مرآة البيئة فحسب وانما هو مع ذلك ترياق الحاضر والمستقبل • فالاديب الحق من يحمل فى ذاكرته ماضى أمته ويتصور علاج مشاكلها الآنية التى تتخبط فيها ويتوقع مستقبلها ويتنسمه بحاسة اضافية باطنية تستنير بنور العقل • وهل أدل على ادراك الحداد أهمية رسالته الثقافية الاصلاحية وثقل عبئها من العينة التالية المقتطفة من مقال له بعنوان « النهضة العامة كيف تنشأ وكيف تكون » :

« قد يقيض الله للامة فى أيام محنتها رجلا أو رجالا يحاولون انتشالها من تلك الظلمات فيقوم فى وجوههم أولئك الناس المغرورة بهم أمتهم فينسبونهم الى المروق من الدين أو القيام فى وجه الدولة ومحاولة قلبها فيحكم عليهم بالقتل أو السجن أو يبعدون عن أوطانهم • كل ذلك وأمتهم تنظر اليهم وربما كانت مسرورة بذلك حيث يوهمها أولئك المخادعون أنهم انما فعلوا ذلك انتصارا للحق من أولئك المبطلين •

هكذا يعانى الرجال المخلصون فى سبيل الحق وانهاض قومهم الى ما فيه خيرهم • ولقد قطعت أمتنا التونسية أعواما طوالا جرت فى بحرها على هذا المثال المكدر ، **فكم كتب الكاتبون ووعظ الواعظون** ، ولم يزل قولهم مهجورا حتى نضج الالم ، وناءت الصدور بحمل ذلك الثقل العظيم ثقل الاستبداد المرهق • وهناك من عرفت الامة أقدارهم فأصغت اليهم اصغاء المريض لطبيبه الذى **يفسر له الداء ويشرح له طريق العلاج** ، وشعرت بالحاجة فى نفسها فسعى أفرادها فى ارجاع تلك الاخوة المنسية •••

الوطن ••• ! الوطن يدعوكم يا من أوتوا شيئا من معرفة الاحوال أن لا تبخلوا به على من حولكم فانما أنتم أبناؤه البارون • **الكاتب يكتب والخطيب يخطب !**

احتكوا بسواد الامة ، واختلطوا بعوامها ، وحادثوهم بلسانهم البسيط ، وأفهموا أرباب العائلات واجباتهم فانما هم آباء الصغار الناشئين اذا عرفوا الأحوال وأدركوا الواجب عملوا لأبنائهم ما يجعلهم رجال المستقبل ••• » (1)

---

(1) الطاهر الحداد « النهضة العامة كيف تنشأ وكيف تكون » جريدة الامة ـ 18 ماى 1922 •

ويعتبر الطاهر الحداد من المفكرين القلائل الذين ارتأوا جدوى المزاوجة فى نضال الشعوب المستعمرة المتخلفة بين العمل السياسى والعمل الاجتماعى والحركة العلمية والاقتصاد وكان يؤمن بفائدة المزاوجة بين تلك الاعمال المختلفة لتكاملها وذلك قبل تعرفه على محمد على الحامى الذى غذى الحركة الوطنية بدم جديد فى سنتى 1924 ـ 1925 • ودونك عينة من مقال له آخر بجريدة « الامة » تدعم رأيه السابق وتتمه : « أمامنا الوم طريقان : فاما أن نعمل عملا جديا مؤيدا بحركة علمية واقتصادية للتخلص من عبادة الحاكم واما ان نرجع للتسليم بعبادته ريثما تعمل عوامل الانحلال عملها فينا فتختم روايتنا بالفناء الاتم » • (1)

الشاعر الوطنى :

تمرد الحداد الشاعر على الواقع السىء وشحن الحرف بنار الثورة على الجهل والفقر والاستبداد فكان للحرف وقع الرصاصة فى وطنياته وسياسياته واجتماعياته المعروفة حتى الآن وعددها قليل لان الحداد ناثر قبل كونه نظاما وينحصر فنه الشعرى فى التنغيم العذب والابداع الاجتماعى • وفى فنى المنظوم والمنثور نفر الحداد من أدب التقوقع والتصومع فآمن بالرسالة الادبية الهادفة الى ازاحة غشاية الاوهام عن بصائر قوم :

« **باللهو قد قطعوا أيامهم وهم ... فى أرضهم غرباء الدار والسكن** »
« **يعاملون بها كالشاة تطعم ما ... تحتاجه لنتاج السمن واللبن** » (2)

واذ كاشفك الحداد بأنه شب على حب الوطن منذ نعومة أظفاره اذ صادفت طفولته فاجعة قومية متمثلة فى معركة الزلاج ومذابحها ، فلا تعجب من تمكن ذلك الحب من « أحشائه وأوصاله » حتى أنه كان يستحضر فى كل حين ما يقتضيه حب الوطن من واجبات الفكر والعمل :

---

(1) الطاهر الحداد «الحاكم المعبود أو صورة من شقائنا النفسى والاجتماعى» جريدة « الامة » 26 أوت 1923 •

(2) من قصيد « نصيحة لقومى » الطاهر الحداد فى كتاب « الادب التونسى فى القرن الرابع عشر » لزين العابدين السنوسى ـ مطبعة العرب ـ تونس 1927 الجزء الثانى ص 127 •

« شربت حب دياري مذ نشأت بها طفلا وقد عم أحشائي وأوصالي »
« عرفت منتهـا الكبـرى عـلى ولم أنس الفروض التي تقضي بأمثالي»
« من كل حر أصاب الكرب موطنه فقام يسعى بأفكـار وأعمـال »
« تلـك الخسارة لو انى نسيتك يا عزى ويا أملي في كل أحوالي » (1)

ولـم تكـن ثـورة الطـاهر الحـداد فى « الـوطـن » من قبـيـل الثورة اللفظية الغوغائية عندما تغنى بأفذاء الفكرى لوطن انقلب آنذاك دار غربة تنبت الذل لاهلها فحن الشاعر الى وطن استقرار ينبت العز لاهله بأمنه ورخائه وآفاق مستقبله النضير :

« أفـديـك بالنـفـس والمـــال مما يسومك سوءا فيه اذ لا لى »
« أفديك يا وطنى أفديك يا سكني بك اعتزازى وفيك اليوم آمالي»

وليس من المغالاة أن يعتبر الطاهر الحداد شاعر العشق **الوطنى** عنـدمـا يخاطب تونس بلغة العشاق فيتصورها غادة « تشكو الاسى » و « تبكى الحظ » و « يد الاستقام توخزها » فيجيئها الشاعر النطاسى المغرم يحبهـا فيصور لها علاج دائها ويريها الدواء فى عزائم أبنائها كما فى المقتطفات التالية من قصيد له بعنوان « تكريم الزعيم » قاله احتفاء بالشيخ عبد العزيز الثعالبى فى حفل تكريم أقامه الزيتونيون اثر خروجه من السجن فى تهمـة المـؤامرة ضد أمـن الدولة سنة 1920 :

« فتاة حسن بدا فى وجهها سقم يشين أبناءها أن يغفلوا السقما »
« قد أوهنتها يد الاسقام توخزها وخزا تعود به لاتعرب الكلما » (2)

ويقابل شاعر العشق الوطنى فى قصيد له بعنوان « طال بنا النـوم » بين وجهين لحبيبته « تونس » أحدهما مشرق فى عهد فتوتها وتألق جمالها والثانى كالح وهن محا محاسنه تعاقب العقود عليه وصاحبته « فى الرق مغلولة » قد أصاب الرمح مقاتلها وما توفق بعد لانقاذها وفك اسارها من ابتغى تحريرها لكن الشاعر ظل مؤملا عودة الانس الى تونس بظهور منقذ خبير بقيادة الجماهير

(1) من قصيد « الوطن » للحداد فى كتاب « الادب التونسى فى القرن الرابع عشر » لزين العابدين السنوسى ج 2 ص 119 ·
(2) من قصيد « تكريم الزعيم » للطاهر الحداد فى كتاب « الادب التونسى فى القرن الرابع عشر » لزين العابدين السنوسى ج 2 ص 118 ·

« لمشهد تبكى لـه تونـس سعيـره فى قلبها يلـذع »
« عـاشت بـه فى الـرق مغلولـة والرمح فى أحشائها يلمع » (1)

ويقيم الحداد عقيدته النضالية فى شعره على ايمانه أولا بتغلب الحق على الباطل مهما استفحل داؤه شريطة أن يسعى الى الحق طالبه ٠ وقد يغفو الحق بعض اغفاءة فيلين عوده من تغفل أهله عندما يصطدمون بقوى الشر وتغمرهم ترهات الباطل فينسون أن الحق غلاب لكن للحق صولة بعد التراجع يعرفها أهله الناهضون به مستصرخين :

« الحـق حـق وان ظلت مسالكـه لا بد أن يتجلى بعدما انكتما »
« لايضعـف الحـق الا مـن تغفلنـا فلنعقد اليوم في تأييده القسما »
«ما أعظم الحق في نفس الالى عرفوا سلطانه فغدوا في نهجه خدما» (2)

ويبنى الحداد ثانيا عقيدته النضالية فى شعره على ضرورة الزعامة الصادقة أشمحذ عزائم أبناء وطنه فى مسيرتهم الحضارية ٠ ولما كانت الزعامة السياسية فى أواخر العشرينات للشيخ عبد العزيز الثعالبى فقد خاطبه الحداد بقوله :

« فى خير قومك خضت الهول مقتحما تبغى دواء به تستأصل الالما »
« دافعت عنهـم وسهلت الطريـق لهم وكنت خير مثال يوقظ الهمما »

ويقيم الحداد ثالثا عقيدته النضالية فى شعره على ايمانه بالشعب فيكثر من من ذكره فى نظمه ونثره واذ اقترن هذا الاديب بشعبه فقد أسمعنا مثل هـذا القول :

« فـذلتهـم ذل وعـزى بعـزهـم وان وهبونى للسعيـر وقـودا » (3)

---

(1) من قصيد « طال بنا النوم » للحداد فى كتاب « الادب التونسى فـى القرن الرابع عشر » لزين العابدين السنوسى ج 2 صص 124 ـ 125 ٠

(2) من قصيد « تكريم الزعيم » للحداد فى كتاب « الادب التونسى فى القرن الرابع عشر » لزين العابدين السنوسى ج 2 ص 117 ٠

(3) من قصيدة « أملى » للحداد نشرت بجريدة « العمل » يوم 6 جانفى 1959 وقد ناجى بها الشاعر ربه فى ظروف المهاترة التى أثارها خصومه ضده عقب صدور كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع »

وتكثر النماذج الشعرية وخاصة النثرية الطافحة بحب أصيل يجمع بين الحداد وشعبه • وهاك لمزيد التيقن من تعاطفه مع شعبه وبنى وطنه المعذبين في الارض عينة من نثره صور بها بعض مشاهد البؤس فى الثلاثينات بتونس « ما أخطر وأتعس الحياة التى نقطعها اليوم ويظهر أنها لا تزال تنمو مع الايام الى أفظع مما نقاسيه اليوم • فلقد عض البؤس بأنيابه الحادة المسمومة روح الامة وجسمها المنهوك • فلا ترى الا منظرا أسود يملأ العين حزنا وغما ووجوها مصفرة تعلوها كآبة خرساء وهياكل شاحبة أضناها الجوع وضعف مواد العيش الذى يقتاتونه وثيابا بالية مرقعة بكل الالوان وأكثرهم متسولون • فلا تجلس فى أحد الامكنة العمومية الا وتراهم يمرون على التوالى ، فراشهم الارض صيفا وشتاء وغطاؤهم السماء ، فتراهم ملطخين ليلا فى الشوارع أو الدكاكين المرصوفة على ضفاف بعض الطرقات • والسعيد من حصل منهم على ذلك وكثيرا ما نراهم يتزاحمون على تلك الدكاكين لضيقها عنهم ، يفجع منظرهم الغريب ويذيب من كان مثلهم كئيبا • وكم من مناظر تسترها المنازل والبيوت وهى لا تبعد عن هذه المشاهد الا باحتجابها عن نظر العموم • فلقد رأيت ورأى كثير من الناس أن آباء كثيرين كاد لهم الفقر وأعيتهم طرق العيش فبعثوا بأبنائهم الصغار وهم فى سن التعلم يسترزقون لمساعدتهم على لوازم المعيشة فاندمجوا فى صف الحمالين وما سحى الاحذية (الشياتين) • » (1)

ومن أركان عقيدته النضالية الثورية ايمانه رابعا بضرورة الفداء الفكرى والدموى عندما كانت تونس مصفدة بأغلال الاستعمار :

« **خلقت للموت في حفظ الكرامة لا — للجبن تلبسه عارا مع الحقب**» (2)

وتعتمد عقيدته النضالية خامسا على وجوب تأصل أبناء الشعب فى موطنهم ليستحقوا الحياة فوق أديمه رؤوسا لا أذنابا تبعا :

« **بلادنا هذه أرض لنا خلقت — فكيف نرتاد فيها عيشة الكرب !** »
«**ان لم نكن أرؤسا في أرضنا فلمن — هذى البلاد اذن ؟ يا شر منقلب !**»

---

(1) الطاهر الحداد « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » مطبعة العرب تونس 1927 ص ص 26 ـ 27

(2) من قصيد الحداد « أيها الشعب » فى كتاب « الادب التونسى فى القرن الرابع عشر » ج 2 ص ص 120 ـ 121 •

ولما سبر الحداد مجتمعه فتبين ان الجهل قد استفحل فأردى الشعب في متهات التخلف ارتأى الشاعر والكاتب سادسا وجوب تبصيره سبل النجاة فحثه على طلب العلاج الجذري الممتد الى أصل الداء باعتبار أن « العلم أس النجاح » كما في قصيد له بذلك العنوان حيث جهر بأن الجهل « أخفى عن البصائر نهج الخلاص » وأصاب الامة بأمراض اجتماعية واقتصادية وسياسية خطرة كعلل « التشتت » و « الخمول » و « الفقر » « والجوع » « والافات الجسدية » و « تراجع الفلاحة » و « تكاثر البطالة » و « الكفر بالله » والاستسلام للحاكم المستعمر المستبد بأمر الشعب و « التواكل » وكثرة « التشكي من تقصير الحكومة » والاكتفاء بانتظار المنة بدلا من الاقدام على العمل التلقائي البناء فلو تسلح القوم بالعلم لامكنهم انقاذ الوطن من ذل الاستعباد ولفجروا الخيرات من أرض لهم غنية تنبت العز لاهلها متى قوى في نفوسهم العزم على الترقي .
وهاك عينات من قصيده « العلم أساس النجاح » (I) :

« **هيا الى العلم نسعى يا بني وطني**   **فالعلم أساس نجاح المرء في العمل** »
« **لكنما الجهل أخفى عن بصائرنا**   **نهج الخلاص فاسرعنا الى الملل** »
« **وهكذا الجهل يردي أمة جهلت**   **فضل العلوم فباتت أحقر الملل** »
« **داء التفرق أضناها وأسقطها**   **حب الخمول فظلت مسكن العلل** »

ويطنب الحداد في التغني بالعلم في مواضع شتى من نظمه ونثره كما في قصيده « أيها الشعب » وفي عديد من مقالاته ويذكر فوائد العلم في مقدمة كتابه « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » وفي القسم الاجتماعي خاصة من كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » . وهاهو يعوض في قصيد آخر بعنوان « طال بنا النوم » الخيال المجنح المألوف عند الشابي شاعر الابداع الفني بالنغم العذب المرغب في الغرض التعليمي الاصلاحي وهو مقاومة الجهل الذي يعتبره الحداد أصل البلاء اذ أهوى بالشعب في هوة الاستعباد والفقر والجوع والانبتات الحضاري فتآكلته الفتن ونخله داء التناحر حتى أصبح نهبا ميسورا للاجانب الجشعين فاستأثروا بخيراته واغتصبوا منه الارض :

« **أهوى بنا الجهل الى هوة**   **الشعب فيها موثق قابع** »
« **صواعق الظلم على رأسه**   **مجرد من ماله جائع** »

(I) قصيد « العلم أس النجاح » الحداد من كتاب « الادب التونسي في القرن الرابع عشر » ج 2 ص ص I22 ـ I23 .

« قد ضاع عنه مجد أسلافه   وصـائـح الحق لـه رائـع »
« أبناؤهـم مـا بينهم فتنـة   كـل لـه فـي أمرهـا منـزع »
« قد أججوا حربا على بعضهم   عـادت عـلى الباغـي بمـا ينفـع »

ويتوسع الحداد في تعداد مضار الجهل فيذكر انسياق الجماهير الجاهلة الى الشعوذة والدروشة في قصيده « مطالبنا العلوم » كما في هذه الابيات :

« جهالتنا يا قوم أحنت رؤوسنـا   وأهلكت العقبى وصبت مصائبا »
« سكنا لعيش الغبن طول حياتنا   على أن سنلقى في المماة الرغائبا »
« وعمدتنا في ذاك طبـل وقبـة   نؤمل منهـا أن تصـد النوائبـا »
« ونحيي بها في كل عام مواسما   وفي كل أسبوع من الرقص أضربا »
« ونرجو بلوغ المجد من سعي غيرنا   كأن بلوغ المجد يعطى مواهبـا »
« تقدمت الاقوام بالعلم واهتدوا   لما فيه من بأس يـرد الكتائـبا »
« ونحن بأحكـام القضاء وقهـره   نريد العلاعفوا ونأبى المتاعبا » (1)

ويقيم الحداد سابعا عقيدته النضالية على ايمانه بمقومات الشخصية التونسية العربية الاسلامية وهي اللغة والدين والانتساب الى العروبة والارتباط بموطن الآباء والاجداد والتوفيق بين الاصالة والتفتح في بناء حاضر الامة ومستقبلها وبقدر ما كان ايمانه بالشخصية التونسية قويا عتيدا بقدر ما كانت مواجهته عنيفة عاتية لعداتها الذين راموا ابتلاعها والقضاء على مقوماتهـا بسياسـة التجهيل والتفليس والتنصير والفرنسة · ومن شعره في مواجهة عداة الشخصية قصيده « بين مارق وخادر » وهو عندى أحسن شعر الحداد صنعة وابـداعـا فنيا واجتماعيا · ويعني الشاعر بذلك العنوان أن تونس في عصره ضائعة بين مارقين من الخونة وأذناب الاستعمار الذين باعوا ذمة بلادهم وأعانوا عدوها على تطبيق سياسة الادماج والفرنسة باتخاذهم جنسيته ، وبين خادرين ، جامدين قابعين في ظلمات الجهل ، منقاديـن الـى الفقـر ، متعوديـن تحمـل العسف وتنكيس الرأس · ويسمعك الحداد في قصيده نفثات ضمير حساس وزفرات شاعر مغرم بحب الوطن ، متفان في هواه ، متألم لرؤية شعب يقاد الى الفنـاء الذاتي فيستدرج الى الالحاق بشعب آخر دخيل عليه بواسطة التجنيس · وفي

---

(1) من قصيد « مطالبنا للعلوم » للطاهر الحداد ــ نشر لاول مرة بجريدة « الصواب » في 18 أكتوبر 1929 ·

قصيده صيحات يأس تتخللها بروق أمل تدركها عندما يهيب الشاعر بشعبه أن يفيق من نومه الطويل ويحطم قيود الذل ويعيد ما اندثر من مجده التليد ويبنى مستقبله النضير :

أتـونس عندى فى هـواك تولـع	**وأنت منـى نفسى عليـك تقطـع**
نسيت بكالدنيا وعيشى وراحتى	**أريد لك الحسنى وخصمك يمنع**
يريد انقراض الاهل منك ليبتنى	**هنا دار ملك آبد لا يزعزع (1)**

المفكر والناشط السياسى والاجتماعى الثائر :

ولم يكن الطاهر الحداد مجرد شاعر سياسى لا يجود لقومـه الا بالقصائـد البليغة وانما كان مع ذلك مفكرا وناشطا سياسيا مكلفا بترويج شعارات الحزب الوطنى بالمقالة التحليلية المعمقة وبالجولات الدعائية عبر مدن وقـرى الشمـال والساحل التونسيين حتى جاءته فرصة تحقيق ما كـان يعتقده مـن أولويـة الاصلاح الاجتماعى فى بيئته المتخلفة بعودة المناضل محمد علـى مـن المهاجـر المشرقية والاروبية بعد طويل اغتراب . فقد كان الحداد يعتقد ويكتب فى تلك الظروف « ان البلاد التونسية .. محتاجة للاصلاح الاجتماعى أكثر من كل اصلاح. ويشترك فى ذلك جميع طبقاتها مهما اختلفت فيها أسباب المعيشة ... » (2) ويجهر بأن من غايات المؤسسات النقابية القيام بعمل اجتماعى من دخلها لفائدة العمال وأبنائهم ويعدد بعض الامثلة من ذلك العمل كـ « نوادى الارشاد لايجاد التهذيب العمومى » وتكوين المكتبات للعموم والانفاق « على تعليم أبناء العمـال لتخريجهم فى العلوم والصناعات والزراعة حتى تصبح اليد العاملة التونسية ذات قيمة فى الانتاج توفر الاجر المناسب لها ويمكنها برأس مال يتكون منها أن تفتح أعمالا فى الصناعات تقتسم أرباحها وتحقق لنفسها بذلك حرية العمل عندما تقوى فيها الروح الاجتماعية مثلما كان ذلك فى أوروبا عندما أسسوا الجمعيات التعاونية فى الزراعة والصناعة والتجارة والمالية . » (3)

---

(1) قصيد « بين مارق وخادر » للحداد فى كتاب « الادب التونسى فـى القرن الرابع عشر » ج 2 ص ص 112 ـــ 113 .

(2) الطاهر الحداد « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » ط . الدار التونسية للنشر 1966 ص 143

(3) نفس المرجع صص 143 . 144 .

عاد محمد على الى بلاده مزودا بثقافة جامعية وبمشروع اقتصادى تعاونى وبتجربة حياتية نضالية أفادها من الحرب الليبية التى شارك فيها فى أواخر سنة 1911 ثم من مصاحبته القائد التركى أنور باشا ومن تردده على النادى الشرقى ببرلين وكان ذلك المنتدى « مجمعا للشرقيين قاطبة بدون تفريق بين الاجناس » (1) حسب ما ذكر المجاهد العربى الامير شكيب أرسلان .

ما أن حل محمد على بوطنه عاقدا العزم على المساهمة فى بناء نهضته حتى تعاطف مع ثلة من الشباب الناهض المناضل من بينه خاصة الطاهر الحداد الذى كان يلازم محمد على ويبصره واقع بلاده اذ تغرب عنها طويلا ويحثه على تعديل مشروعه الاصلاحى التنظيمى الاول أعنى « التعاونيات » أو التعاضديات التى رام محمد على تكوينها فى جميع القطاعات الاقتصادية (البنوك والزراعة والصناعات والتجارة) . وهاك شهادة الحداد : « من يوم أن جاء محمد على ونحن نتفاوض ونبحث عن عمل اقتصادى عام الفائدة يكون مطابقا لاستعداد الامة فى ماليتها وأفكارها . فلقد جاء لاول مرة بأفكار لا تتسع لها البلاد فارتأى تأسيس شركات تعاونية زراعية وصناعية وتجارية ومالية ... فلاحظنا له أنه ربما كان يقرر بذلك حلما من أحلام الفلاسفة بالنسبة الى الوسط الذى نحن فيه . » (2)

وكان لملاحظة الطاهر الحداد وقع حسن فى نفس محمد على فعدل أفكاره وبدأ يدعو الناس الى تكوين نواة حركة تعاونية اشتراكية معتدلة ثم بعث الى الوجود « جمعية التعاون الاقتصادى » فى القطاع التجارى فحسب يوم 29 جوان 1924 بقاعة الخلدونية وساعده خاصة فى تأسيس تلك الجمعية الطاهر الحداد والزعيم الشاب الطاهر صفر وثلة أخرى من المناضلين فكان عملهم الاصلاحى الاقتصادى تمهيدا لمرحلة جديدة من النضال الاجتماعى مكنت القيادة السياسية فى جمعيتهم من الاتصال بالجماهير الشعبية التى كانوا يريدون ترقيتها وتحسين طاقتها الشرائية . وسرعان ما انتشر الوعى فى بعض الاوساط العمالية بالعاصمة فتحركت الجماهير الكادحة فى مناطق مختلفة من البلاد وكان اضراب عملة ميناء العاصمة يوم 13 أوت سنة 1924 أهم حدث عجل بنشأة أول حركة نقابية قومية ذات أهداف سياسية فى تونس — وفى الحقيقة ما كان العمال بعيدين

(1) « حاضر العالم الاسلامى » ط . دار الفكر ببيروت 1971 ج 4 ص 341 .
(2) الطاهر الحداد « العمال التونسيون ... » ط . الدار التونسية للنشر 1972 ص 42 .

عن محمد علي والطاهر الحداد ورفاقهما اذ انخرطوا فى المؤسسة الاولى « جمعية التعاون الاقتصادى » ثم استنجدوا بمحمد علي ورفاقه عندما توقفوا عن العمل مطالبين أعرافهم بتحسين الاجور • وكأن الاحداث الدامية فى مدينة بنزرت يوم 11 سبتمبر 1924 والاضرابات والمظاهرات الشعبية المتعاقبة فى منزل جميل وجبل الخروبة وسيدى أحمد وحمام الانف وفى مناجم الفسفاط بالمتلوى وفى غيرها من الاماكن وما أفضت اليه من اعتقالات وأحكام زجرية بالسجن وأخرى قاسية بالتغريب خارج الوطن قد ناقضت ما كان يتصوره الطاهر الحداد من امكانية اصلاح الهياكل الاقتصادية والاجتماعية حينما كانت الامة لا تملك مقاليد حكمها فأثبتت نكبة « جامعة عموم العملة التونسيين » أولوية السياسة على التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى الكفاح التحريرى •

ولكن الحداد ظل مع ذلك مقتنعا بأن اصلاح الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية دعامة ضرورية للكفاح السياسى المستهدف تحرير البلاد اذ الغاية القصوى ليست فى نظره تعويض حاكم أجنبى بآخر من أهل البلاد فقط وانما أيضا فك اسار الشعب من قيود الجهل والفقر والمرض ومخلفات التدلى الحضارى ورواسب قرون الظلام • فلا عجب أن يتدرج فى مسيرته الاصلاحية وفى أدبه الاجتماعى من السياسة الى التعاونيات الاقتصادية فالتنظيم النقابى ـ وقد ساعدته الاحداث على ذلك التدرج ـ ليؤول به الامر أخيرا الى التفكير فى تحرير المرأة •

ومن طريف ما يلاحظ فى كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » تواجد عجيب بين عناصر سياسية وثقافية واجتماعية وعقائدية دينية بنى عليها الحداد مشروعه الاصلاحى المتصل بالاحوال الشخصية وبترقية المرأة والاسرة • ولو قمت باحصاء تلك العناصر المتواجدة فى ذلك المشروع الاصلاحى لطال استعراضها ولكنى اقتصر فى هذا المقام على مثال واحد منها يدل على اعتقاد الحداد أن دعامة كل إصلاح اجتماعى ومنه ترقية الاسرة فضلا عن الثقافة والاستقامة هى تلك الجهود الاقتصادية التى تقضى على البؤس وتستأصل جذور التخلف كما تبينه العينة التالية المقتطفة من كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » :

« من الحق والواجب أن نهتف للحياة الطيبة النزيهة بما فيها من لذة وزينة وانما الذى ينقصنا ويلزم أن يقف من أجله كل شىء حتى يتم هو بذل الجهود الاقتصادية المتحدة لنقيم حياتنا على أساس ثابت مثل ما سارت عليه الأمم

التى تعيش اليوم على وجه البسيطة موفقة فى بلادها وحتى فى مد سلطانها لدحض كل خامل وضعيف . » (1)

ومن بين الجهود الاقتصادية التى يعتقد الحداد وجوب بذلها للنهوض بمستوى الاسرة والمجتمع الاعمال الصناعية التى تقوم بها المرأة كالخياطة والتطريز والتشبيك وصناعة النسيج فى الصوف والحرير مثل قطع البرنس والجبة والزربية . والرأى عنده فى فصل طويل من كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » « أن هذه الاعمال الصناعية فى جملتها تعد بحق أثمن مهر يقدم لبناء الحياة الزوجية على أساس تعاون مثمر خصوصا عند وجود الاولاد ولزوم الانفاق على تربيتهم وتعليمهم التعليم الصحيح . غير أنها جامدة فى حدود التلقين الموروث لم تعمل فيها حركة الفكر والتطور ولم تنتشر فى الجهات التى لم ترثها عن سلف ولو تم ذلك فى هذه الصناعات لكان للمرأة أعظم نصيب للمجتمع التونسى » (2)

بعد أن علل الحداد خيبة حركة محمد على فى كتابه « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية » بأسباب باطنية هى جهل الشعب وفقره وتدهوره الاجتماعى قبل الاسباب الخارجية وهى تألب الاحزاب وادارة الحماية على تلك الحركة ، جهر بأن داء الحياة ودواءها فى أعماق الشعب . أليس الحداد هو القائل : « اذ نحن بقينا لا نفهم الا أن لنا آمالا نتمنى حصولها دون أن نفهم حقيقة الاستعداد الذى يجب علينا لها أو ندرك منابع القوة من أنفسنا فنبرزها فقد برهنا بذلك على جهلنا بالحياة وحمقنا فيها وأنانيتنا الاثيمة وفقدنا أهلية اكتساب الحقوق . ثم لا نطمع بعد ذلك فى غير الانحلال والموت . » (3)

وهاك لمزيد التيقن من رأيه فى هذا الموضوع قوله : « نحن أمة تطلب الحياة ولكن فاتنا ان نطلبها من أنفسنا فظللنا تائهين فى السير ولو فكرنا قليلا لوجدنا الحياة فى أعماقنا . وهذا ما حدا بى الى أن أبسط أعمق جزء فى حياتنا وأدقه فأصف ما فيه من الالم والبؤس والانحلال لنرى أوجه إصلاحه . هذا الجزء هو المرأة والعائلة . » (4)

---

(1) « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » صص 107 ـ 111

(2) « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » صص 75 ـ 76 .

(3) نفس المرجع صص 139 ـ 140

(4) من كلمة شكر ألقاها الحداد فى حفلة تكريمه بعيد صدور كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » .

وينقسم كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » الى قسمين أساسيين قسم تشريعى وآخر اجتماعى • أما القسم التشريعى فقد بناه على نظرية التدرج فى تشريع الاحكام المتصلـة بالاحـوال الشخصية واعتبر تلـك الاحكام عـرضية دنيوية لا تمس جوهر العقيدة وتقبل التغيير والتطوير • أما الاحكام الجوهرية كعقيدة التوحيد ومكارم الاخلاق واقامة العدل والمساواة بين الناس وما هو فى معنى تلك الاصول فانها خالدة بخلود الاسلام (امرأتنا ص 6) •

للحداد تصنيف طريف لمحتوى كلمة « الاسـلام » فيفهـم من حديثـه عـن الاسلام أنه يعتبره عقيدة وأمة وحضارة ودستورا اجتماعيا • فالعقيدة لا تتغير والدستور الاجتماعى يتطور لمسايرة التقدم مع مراعاة النقاوة والاستقامة •

وفى المشروع الاصلاحى الاجتماعى الذى عرضه الحداد على بنى وطنه دعوة الى تمكين المرأة المسلمة من حقوقها المدنية استنـادا الى أدلـة يستمدهـا من القرآن والفقه • فهو لا يمانعها حق الشهادة والانتصاب للقضاء • ويعترف لها بحرية التصرف فى مالها • ويجهر بأن نزول ميراثها عن الرجل ليس أصلا ثابتا غير قابل للتغيير فى الاسلام بل انه قد يتبدل مع مرور الزمن فيتساوى الذكر والانثى في الميراث. ويعرف بالزواج تعريفا طريفا فيقول عنه انه « عاطفة وواجب وازدواج وتعمير». ويقيد عقدالقران والزواج بالفحص الطبى المسبق درء للآفات التى قد يتوارثها النسل من أبوين مصابين بأمراض مزمنة ودونك عينة تكشف عن رأيه فى الفحص الطبى قبل الزواج :

« فى الناس من هم مرضى بأمراض مزمنة خفية قد لا تظهر وهى هادم قوى للنسل وصحة المرأة • ومع ذلك فهم لا يحجمون عن الزواج اندفاعا مع الشهوة التى لا يملكون معها ضميرا يشعر بمسؤولية ما فى هذا الشأن فتكون جنايتهم مزدوجة على الزواج وعلى النسل ••• ولقد شعر علماء العمران ورجال التشريع بهذا الخطر السارى بين الازواج والمنتقل فى الابناء ثم يكون ارث الاجيال القادمة فقاموا يضعون البيانات الضافية عن لزوم الكشف الطبى قبل الزواج ، منعا للنكبات الاجتماعية وحرصا على سلامة الشعب من طريق العائلة • وهذا ما أخذت به الافكار الناهضة فى أمم الشرق الاسلامى • ولا تلبـث حكومـات الشرق جميعا أن تسنه قانونا نافذا • وخير لهؤلاء الذين يستعدون للزواج أن ينفقوا ما أعدوه على صحتهم لينالوا العافية ان كان العلاج نافعا والا فما كان أغناهم عن زواج يجنون به على حياة غيرهم وينالهم من ذلك نصيب » (1)

---

(1) « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » صص 92 ـ 93

ويدافع الحداد عن حرية الاختيار بالنسبة الى الزوجين • واذ كان يؤمن بأن الاسرة هى أساس المجتمع وكان تعلقه شديدا بالشخصية القومية فانه ناهض الزواج بالاجنبيات كما يبينه قوله « ان المرأة هى التى تلد الشعب وفى أحضانها ينمو ويثقف وفيها الامل الاول فى اعداده للحياة والواجب • والمرأة الاروبية لم تخلق لنا ولم تتهيأ للاندماج فينا وليس لنا الا أن نتزوج من بنات جنسنا • واذا كان فيهن بعد عن صفات الكمال المطلوبة فليس علاج ذلك فى الانقطاع عنهن بالزواج بالاجنبيات وتركهن عوانس فى البيوت ولكن العمل بتطويرهن وحمايتهن فى هذا التطور من الاخطار البادية فيه اليوم » (1)

وينادى الحداد بضرورة اعداد الفتيان والفتيات للحياة الزوجية بنوع جديد من التربية التى يكتشف بها المتأهلون منهم للزواج ما هيته باعتباره أنسا وواجبا وتعميرا • ولئن صرح بأن الاسلام حرم موانع الحمل لتعطيلها غرض التعمير فانه أفتى باباحتها متى خيف على سلامة الاسرة وحياة الام بل تعدى ذلك الى اباحة عملية الاجهاض • وهكذا ترك الباب مفتوحا للمجتهدين فى موضوع التنظيم العائلى فى البلدان الاسلامية (امرأتنا ص 32)

والرأى عنده أن يقتصر الرجل على زوجة واحدة حفاظا على سلامة أسرته وحرصا على تضامن أفرادها ويعرف الطلاق بأنه أبغض الحلال الى الله و « فراق بعد تعذر الوفاق » لا انتقام من المرأة كما هى العادة فى المعهد الزجرى المسمى « دار جواد » حيث كانت المرأة تسجن عندما ترغب فى الطلاق ويصعب على الزوج قيادها والتخلى عنها • يقول الحداد :

« ان المرأة فى هذا الحال قد يقوى فيها عامل السخط فتهمل شؤون بيتها وزوجها ••• ولكنهم أسسوا لها معهدا خاصا بها لعلاجها هو ما يسمى (دار جواد) منزل خاص يقيم عليه الشيخ القاضى رجلا قيما يسمى (جيدا) وامرأته وتسمى (جيدة) يضع الرجل زوجه باذن قاضى الشريعة عندهما فى المنزل ويضيق عليها فى طعامها وكسائها وتنام وحدها ليلا ولا تباح زيارتها الا باذن ومشقة • كل ذلك لتنزل الوحشة فى قلبها فتطلب بنفسها الرجوع الى بيت الزوجية تائبة مستغفرة معلنة الرضا تملصا من تلك النكايات القاسية عليها وليس بعيدا أن تثور الفتنة مرة بعد اخرى وتتكرر زيارتها الى ذلك المعهد الزجرى • فأى معنى بقى لهذه الزوجية المضطربة كمن به جنة ؟ وهكذا كان الامر ويكون فالآباء يريدون السعادة لبناتهم بالاكراه والجبر والازواج يطلبون

(1) نفس المرجع ص 113 •

تقرير الزوجية ودوامها بالاكراه والجبر . وقد مكنهم القضاء الشرعى من هذا المعهد الاصلاحى لحمل زوجاتهم فيه على الرضا والرغبة فى بيت الزوجية بالاكراه والجبر لا بالاقناع والمحبة . » (1)

وفى هذا السياق ينادى الحداد بوجوب « تحكيم القضاء فى كل ما يقع من حوادث الطلاق والزواج حتى لا يتم منها الا الموافق لغرض الشريعة ونصوصها ولا يبقى مجرد لغو يصدر من فم رجل ينقض بيتا بما فيه من أهله . »

واذا تم الطلاق فلا بد فى نظره من امتاع المتضرر من الزوجين بتعويض مالى تضييقا على المطلق وبكتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » وقف الحداد فى وجه تيار التقليد الاعمى والاجترار العقيم ونظر الى الاسلام نظرة مستقبلية تحدى بها رجال الدين الجامدين المتمتعين آنذاك بامتيازات اجتماعية ومادية صرفتهم عن فتح باب الاجتهاد وجهر لهم بحقائق جارحة استثارت غضبهم ولم يتردد فى مواجهتهم مباشرة بابراز القطيعة التى تفصلهم عن واقع الحياة فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة . ودونك ما كتبه عن الفقهاء فى سنة 1930 : « ان عامة فقهاء الاسلام من سائر القرون الا ما شذ يجنحون الى العمل بأقوال من تقدمهم فى العصر ولو بمئات السنين ويحكمون بأحكامهم مهما تباينت أحوال المجتمعات الاسلامية باختلاف العصور وهم يميلون فى أخذ الاحكام الى تفهم ألفاظ النصوص وما تحتمل من معنى أكثر بكثير مما يميلون الى معرفة أوجه انطباق تلك النصوص على حاجات العصر وما تقتضيه مصلحة المجتمع الحاضر الذى يعيشون فيه . وما ذلك الا لبعد الصلة بينهم وبين دراسة الاحوال الاجتماعية التى يجتازها المسلمون لمعرفة أوجه الاحكام الصالحة لحياتهم . وهذا الجهل الواضح هو الذى منعهم من الشعور بحاجة المسلمين فى تطور الحكم بتطور الحياة . » (2)

واذا كانت مجلة الاحوال الشخصية الصادرة فى 13 أوت 1956 قد ألفها التونسيون اليوم فان مضامينها المطابقة لما جاء فى مشروع الطاهر الحداد فى

---

(1) نفس المرجع صص 87 _ 88 .

(2) نفس المرجع صص 72 _ 73 .

أواخر الثلاثينات كان حدثا بغيضا فى نظر رجال الدين فتألبوا عليه وان كانت للخصومة أسباب أخرى ليس هذا البحث مقام عرضها وتفصيلها (١)

أما القسم الاجتماعى من الكتاب فانه يعالج الثقافة الصالحة لتكون البنت زوجا فأما تؤدى واجبها الاجتماعى على أحسن وجه ، فيصنف الحداد تلك الثقافة الى عدة أصناف فمنها الصناعية والمنزلية والعقلية والاخلاقية والزوجية والصحية ويقترح مخططا تعليميا مستقبليا سابقا لزمانه بربع قرن اذ يستهدف مشروعه التربوى غايات مختلفة وان كانت متكاملة فمنها التربية الاسلامية وتهـذيب الذوق وتكوين العقل الدرب على الصواب بالعلوم الصحيحة وترويض البدن بالالعاب الرياضية وغير ذلك فكان مشروعه التعليمى الذى اقترحه لتربيـة الفتاة التونسية فى الثلاثينات حلما من أحلام الفلاسفة حسب عبارة استعملها الحداد نفسه فى حكمه على المشروع التنظيمى للاقتصاد الشامل كما فكر فيـه أولا محمد على • لكن طرافة المشروع التربوى الذى عرضه الحداد طلائعى بشر بما أصبح اليوم واقعا فى بلادنا فتحقق حلم ذلك الرائد بعد موته بربع قرن عندما استقلت البلاد •

وقد أبدع الحداد فى تصوير مشاهد من حياة الاسر الشعبية داخل البيوت فى القسم الثانى من كتابه فأرهف سمعه ودقق الملاحظة ودون لوحات ناطقة بما يقع فى تلك البيوت من ترهات وأعمال تضر باستقرار العائلة وحياة الامة كما تبينه هذه المشاهد الغابرة من حياة آلاف الاسر التونسية فى الثلاثينات :

« يكون للرجل أزواج عندنا فيسكنهن فى دار واحدة فتعمل الغريزة عملها فى اتساع هوة الخلاف بينهن ومع الزوج فتكيد الواحدة للاخرى كيدا كأن تسرق لها متاعا لتتلفه أو تخفيه أو ترمى لها كمشة من الملح أو الفلفل فى طعامهـا الذى تهيئه للزوج أو تخلق ما تنسبه اليها أولا تقوم بدورها فى نظافة المنزل وترتيب شؤونه فتقوم بينهن ضجة هائلة من الشتم والسباب القبيح وقد يكن ذوات أبناء ينضم كل منهم الى أمه فتتسع المعركة ويعظم خطرها على حياة المنزل وعلى تلك الاخلاق الناشئة فى محيط يأكله الحقد والتحاسد وتغمره الجنائية

(١) أحمد خالد « الطاهر الحداد والبيئة التونسية فى الثلث الاول من القرن العشرين » راجع باب الخصومة حول الحداد صص 309 ـ 414 • وقـد عثرت على أسباب أخرى للخصومة أعرضها فى طبعة جديدة •

على ذلك النشء • ومهما كان للرجل من قوة وهيبة فهو لا يستطيع بها حبس تلك الغرائز عن الثورة الا مددا منقطعة • » (I)

وأمثال تلك المشاهد الغابرة التى دونها الحداد للتاريخ عددها كثير فى القسم الاجتماعى من كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » وفى المقدمة الثانية لكتابه « العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية »

ويكتشف قارىء آثار الحداد أن لهذا الاديب المفكر شخصية قوية مكنته من ادراك عبء مسؤولية رجل الفكر وأهمية دوره المجهرى القيادى ـ فقد أحيا الادب التونسى فى عصره بتصادم أفكاره ونظرياته الجديدة بأفكار دعاة القديم ومواقفهم السلبية وأثرى التأليف بمعان حضارية انسانية وجعل الادب بوضوح الرؤية المستقبلية « رسالة الدنيا » لا تزجية فراغ ومتعة زائفة •

وما كان الحداد غرا سابحا فى بحر الخيال ليتوهم أن جميع مادعا اليه وناضل من أجله يحتم الاخذ به وتطبيقه فى الثلاثينات بتونس وانما كان أديبا ومفكرا ومصلحا طلائعيا ذا اتصال بالواقع ينظر الى مجتمعه نظرة آنية لكنها مشفوعة برؤى مستقبلية • فما غاب عنه مثلا فى كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » أن بيئته لم تتهيأ بعد لتطبيق مشاريعه الاصلاحية لان أفكار أهل البلاد لم تـع فى الثلاثينات بصفة جماعية مقومات النهضة ولم تستعد بعد لقبولها • أليس هو القائل : « أين نحن من هذه الواجبات النافذة عند غيرنا ؟ فان أفكارنا لـم تتدارسها بعد فضلا عن السعى فى تحقيقها » (امرأتنا ص 106) •

ومع ذلك فان الحداد ظل مقتنعا بصحة رؤيته اذ شامت عينه الباطنية ما تخبئه الايام عندما قال فى ظروف الخصومة المسعورة ضده عقب صدور كتابه « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » : « ما الذى ارتكبت غير الكتاب الذى الفت والرأى الذى أبديت ذلك الرأى الذى وان قوبل اليوم بالمعارضة من هيئـات مختلفـة الغرض فى عملها فلا بد أن يظهر بعد خمس أو عشر من السنين رأيا صائبا أو ضروريا لحياتنا يزداد انتشاره بمرور الايام • » (2)

(I) « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » صص 97 ـ 98 •

(2) راجع أحمد خالد « الطاهر الحداد والبيئة التونسية ... » ص 330 •

الخاتمة :

هكذا قدم الحداد للادباء التونسيين من بعده درسا فى الالتزام الادبى فأبان لهم أن الكتابة « رسالة الدنيا » كما يقول الشابى وأنها لا تستهدف الفن للفن وانما تستغله لتكون نداء الحرية والتطور · فاذا فقدت الكتابة تلك الوظيفة اشتبهت على الناس السبل وما دروا أن التبصر يبدأ بالحيرة الايجابية وبالرفض المتحسس سبل البناء الجديد وبالقدرة على تجاوز الموجود السلبى الى الممكن الايجابى ليكون الحاضر حاملا فى طياته الماضى معدا المستقبل الافضل · وما من شك فى ان الطاهر الحداد وثلة من رجال الفكر والادب والسياسة المتعاطفين المتكاملين فى الثلاثينات والاربعينات قد مثلوا طور المخاض الذى سبق ولادة أمة جديدة أبصرت نور الحياة مع طلوع فجر الاستقلال سنة 1956 ·

احمد خالد

1975 / 3 / 24

« الفكر » فى عدد خاص بالمرأة

تعتزم مجلة « الفكر » اصدار عدد خاص بالمرأة التونسية يصور المنزلة الاجتماعية التى تحظى بها فى تونس ، ويعطى صورة عن الادب النسائى بتقديم نماذج من مختلف الانتاج الذى كتبته أقلام نسائية ·

و « الفكر » التى تنوى اصدار هذا العدد فى مستهل سنتها القادمة تدعو الى الاسهام فيه كافة الكتاب الذين لهم اهتمام بهذا الموضوع ·

والزمان الذي لنا

شعر : الدكتور مصطفى عطاء الله

كف جرا على قدم فالذى نرتجيه تم
فجرنا شعشع الربى يوصد الليل والحلم
ثم يودى بشمسنا ذات يوم الى العدم
ويولى ببدرنا ماتم صامت جهم
بشظايا كواكب آفلات الى الظلم
يتلاشى وميضها بعدما غارت القمم
سبقتنا عوالم سهرت ليلها أمم
والزمان الذى لنا كالزمان الذى انصرم
وغداة الغد انتهت ومضت قبل ان يتم

حار جنباى إن اقل كيف انى وكنت كم
وكسانى تباطؤى مسحة الشيب والهرم
مسحة لم تحلنى فوق ما حل وانعدم ..
كم سبقنا طموحنا او رفعناه كالعلم
وشققنا الفلا فما فل سيف ولا انفصم
بجياد سوابق معصرات بلا لجم
وشراع كأنها ومضات على قمم
او سفين شوامخ يتبخترن فى شمم
ذكريات كأنها نفحات من النسم
ان اردنا تبخترت ثم سرعان ما تلم
نفحات عتيقة قيروان وقصر جم
كهربان وعنبر وعطور من العجم

وشباب مشبشب مرح الروح والقدم
وبحار من الجوى وجبال من الكلم
والهوى يدفع الهوى ذا تهاوى وذا نجم
مرمر الرمل فوقنا بتجاعيده الصمم
فانزوى كل مفرد بسياج من الحلم
وبقايا محبة كان معيارها عرم
هل لذكراك ملمس هل لذكراك ملتحم ؟
منذ اقسمت بالهوى ذهب الوعد والقسم ...

سادة الكون والنهى ان غدا للنهى حكم
من هدانى فزج بى فى نواعيره ولم ؟
من تسلى بحيرتى ؟ من دعانى ولم يقم ؟
من تجلى بقسوة واذا رمته اكتتم ؟
خضتها فى سذاجة ثابت الجد والقيم
وتحيرت للجفا وتجافيت للنقم
وتعصبت للعلوم واكبرت بالشيم
ثم فتحت راحتى : لم اصادف سوى الندم
قد مضى جدنا سدى وغدا نورنا وهم
وأصبنا نقيض ما صرفت نحوه الهمم
وكتابى اضلنى بشعاب من الحكم
هاديات الى النجوم وبالارض تصطدم
انما الكون كله والتواشيح والنغم
والجمال الذى انجلى حلم عج فى العدم

نحن اسرى عقولنا والخيال الذى يلم
ومدينون للهوى اذ شرعنا واذ نهم
نحن ندنو من الحقيقة والفرد ينقسم

زئبـق وسـط راحتـي كـلـما دسته التـأم
واعتقاد الـذي دنـا بعض عقل وبعض شم
نحن في الريح كالهبا نرتقي ثم نرتطم
بين توق الى البقا واشتياق الى العدم
حشرات مجنحات الى النار تزدحم
رهن مستقبل ضرير ومستدبر أصم
والمنايا محلقات وتنقض في نهم ...

هل الاقيك يا أنا قبل ان تنزل الظلم
ام الاقي **مظاهرا** ورؤى ما بها إرم ؟
كلماتي تبعثرت قبل ان تدرك القلم
والمعاني زجاجة خرقت صفوها الكلم
والزمان الذي لنا كالزمان الذي يتم

تونس 1975

م. ع. ا.

(الأستاذ بكلية الطب بتونس)

سيمفونية الحياة

بقلم : محمد الحبيب براهم

الاهـــداء :
إلى من وهبتني نشوة الاحساس بأنني أب : إلى « أم نزار »

ـ « أنا آت حالا ٠ »

وأغمض عينيه ٠ لم يدر أيبكي أم يقهقه ! يسجد أو يرقص ٠٠

ـ « أنا آت حالا ٠ »

رنين الهاتف يضج في الدنيا ٠٠ يهرع الى السماعة ٠ تلاشى الارهاق ٠ تبخر التعب ٠٠ كانت ليلة عصيبة أصابه فيها الارق اللعين ٠٠ جرب كل المسكنات ٠ يخدره صوت أم كلثوم عادة فتنقله آهات « الأولة في الغـرام » الى عالم لذيذ عجيب وتغرقه شطحات التعبير المعجز في الرباعيات في أغوار حالمة ٠٠ تنيمه المطالعة ٠٠ وتحمله السطور دوما الى عوالم فسيحة مليئة يشعر معها أنه عاش مرات وعرف أضعاف من عرف وآنس مخيلة كثف لها الصور وجسما عدد له البشر واحساسا وعقلا فتح لهما الورق دروبا ٠٠ الا انه هذه المرة لم يرتخ لصوت الرباعيات ولا بددت عنه الضيق المطالعات ٠٠ دار الشريط الى ان بلغ الفراغ ٠٠ وسقطت من اصابعه الصفحات وما داعبه نوم ٠٠ وأعاد الشريط المسجل الى علبته ورصف الكتب في مكانها ٠٠ طال عليه الليل ٠ الم يحمد الله مرارا على حكمته اذ خلق الليل مساويا للنهار ٠٠ نهاره ليل الناس ٠٠ ينامون فيستيقظ ٠٠ في الليل يكتب ٠٠ والكتابة عنده صلاة يطهر فيها نفسه ويتجرد ويتصوف ٠٠ ولكن ليله هذه المرة طـال هـو ايضـا ٠٠

وأحس أن وقفته امام السماعة طالت بدورها ٠٠ ألم يحب منذ لحظـة في نشاط من لم يعرف أرقا في حياته ٠٠

ـ « أنا آت حالا ٠ »

وتلقفه الشارع خطى سريعة ونظرا مصوبا الى مقصد واحد٠٠الليل عنده حياة ولكنه البارحة خافه ٠ انتابته الرهبة ٠ لم يصدق أنه قد ينتهي ٠

وحث الخطى ٠٠ الله ! انه نسي سيارته أمام مدخل العمارة ٠ أما كان ينبغي أن يستعملها ليصل في وقت أقصر ٠٠ وتراجع في رأيه ٠٠ المكان الذي يتجه

اليه قريب ٠٠ اختاره منذ مدة عمدا حتى يفى بالغرض عند الحاجة ٠٠ أحيانا تكون الارجل أسرع من العجلات ٠٠ وابتسم للمقارنة ٠٠ واتسعت الابتسامة ٠ ما أحلاها تلك اللحظة التى اشترى فيها سيارته ٠٠ عادت به الذكرى يومها الى السيارة الحمراء الصغيرة التى فاجأه بها أبوه ليلة أول عيد أصبح فيه يعرف معانى الأشياء ٠ سيارة حمراء كبيرة فى عينيه الصغيرتين ٠ لها ارقام وعجلات ومقعد يتسع لجسمه الغض وآخر بجواره للمسافرين معه من قطع الحلوى وأصناف الفاكهة التى تمثل كل ثروته ٠٠٠

ـ « ما هذا ؟ أفق يا سيد !! »

وانتفض ٠ كادت احدى السيارات المارقة فى هذا الصباح تدهسه ٠ زعق فيه السائق ٠ واتسعت الابتسامة ٠ ومر راكب السيارة وألفاظ الغيظ المتزايد تشيعه وهو يحث الخطى والابتسامة تتسع ٠٠ ما أتعس حال السياقة ووضعية المرور هذه الايام ٠ المتربصون أكثر من المرسمين ٠ لا شك أن والد هذا السائق لم يفعل مع ابنه ما فعله ابوه معه ٠ طريقة طريقة أبيه فى تعليم السياقة !٠ وابتسم للفكرة والذكرى ٠ كان والده يرصف أحجارا كثيرة ويشكلها انماطا عديدة فهىمنعرجات ومضايق والتواءات صعبة ويأمره بقيادة سيارته داخلها دون ان يلمس حجرا او يزيحه من مكانه ٠ وكان يرتمى بين أحضان جده وهو يروى له كيف يمرق بين الدروب الملتوية فى خفة وسرعة لا تصل اليهما سيارات السباق ٠٠ خطاه حثيثة تعدو ٠٠ تسابق كلمته « أنا آت حالا » ٠٠

عجبا لماذا يلتفت اليه الناس ! أبه شىء ؟ ونظر الى ما يلحقه بصره من جسمه ٠ وتحسس شعره ٠٠ آه ! شعره ٠ كاد يقهقه ٠ وانزوى فى ركن من مدخل عمارة ٠ مشط شعره المنفوش ٠٠ فاجأه جرس الهاتف ٠٠ رمى بنفسه فى الشارع وقد لبس أول ما تبادر الى يديه ٠ شعره ! عاش صراعا مريرا مع أبيه ليحميه ٠ كانت رغبة والده ملحة فى ان تتلقى فروة الرأس الشمس مباشرة زمن الصبا حتى تتطهر ، وينمو دون أن تعوق ذلك النمو المثالى معوقات طارئة او اعتبارات عابرة ٠٠ والمعوقات عديدة ٠٠ غبار الارجل المتطاير وهى تلاحق الكرة فى مباريات صبيان الشارع الحامية ٠٠ أنامل الام التى اهترأت من تنظيف هذه الستائر المسدلة ٠٠ و ٠٠ وقفز الى عينيه مشهد لن ينساه ٠ كان يستجدى الحلاق حتى لا يعمل المقص فى وفاء مطلق لأوامر أبيه الذى يوصيه قبل ان يتركه ٠ نفعت معه كل الطرق ٠٠ الحلوى ٠٠ الكتب المسروقة وفيها أساطير « سيدنا على » وخرافات ألف ليلة ٠٠ وأتى اليوم الذى فلت فيه كل الاسلحة ٠ رافقه أبوه الى دكان الحلاق وأسقط فى

يده . تجمدت التوسلات في أعماقه ونظرات أبيه المتربصة توجه أنامل الحلاق الخائن للعهد . وجز رأسه . وكانت مصيبة .. فهي ليلة العيد . رأحس انه ذبح قبل الكبش ..

وازدادت الابتسامة اتساعا .. كبر وأطال شعره وها هو ينساه ثائرا متمردا على الحلاقين هازئا بأذواق المتطلعين . لم يدر كيف نسي كل هذا ! ولكن .. ورفع أصابعه الى ذقنه .. أواه ! . مدببة ، ناتئة دبابيس مشوكة . أهو يسير أمام الناس بهذا المظهر ؟ سنوات لم ينس فيها يوما حلاقة ذقنه صباحا .. وعادت الابتسامة تتهادى على شفتيه . تعديل طفيف لا مفر منه في ما زعمه منذ حين . بعد الزواج انقلب الميعاد وتحول من الصباح الى المساء . تغيير الحلاقة لليل لضمان مزيد الفعالية لا غير اذ لكل مقام فعال .. واحمر وجهه . واحتقن بقوة كان لحظتها جالسا بجوار أمه حين تطلع اليه أبوه بامعان ثم وعلى غير عادته مازحه في أمور كانت تحيره :

— « ما شاء الله .. وأصبح لك شارب أيضا مثل الرجال »

ولم ترأف به أمه فزغردت عيناها :

— « مشعار » كأبيه .. ما أسعدني بابني وقد أصبح رجلا .. »

ولم يجد اين يهرب فانكمش حياء تصفعه ملاطفة أبيه المتهكمة :

— « ولم يبق الا ان تبحثي له عن عروس على قدر مقام اللحية والشارب »

وتوالت خطواته سريعة .. ومرت الايام .. أما لهذا الطريق من نهاية ! والسير ألا يوصله الى مقصده .

— « أنا آت حالا . »

لعل الممرضة التي تقوده الآن الى الغرفة الخاصة التي تقيم بها زوجته هي تلك التي أعلمته منذ حين بالخبر .. وفتح باب العالم .. عفوا الغرفة .. ووقف طويلا يحتضن بعينيه المغرورقتين المشهد الخالد.. وأتاه صوت زوجته هامسا في ارتخاء لذيذ :

— « إنه مثلك .. يشبهك .. صورة منك .. »

وعاد يبتسم وأنامل زوجته الرقيقة تمسح عينيه لتمكنهما من التأمل في.. شعر وليدها العزيز و « زغب » شاربه الموهوم الموعود ! واحتضنه بعينيه من جديد وهو يقسم أن تكون أول لعبة يهديها له سيارة كبيرة حمراء ..

مساكن في 28 / 12 / 1974

م. ح. ب.

سقوط سايغون

شعر : هشام بوقمرة

.... وأطلت شمسك الحمراء
فى أفق الرجاء
تنبت الأزهار بيضا
فى قلوب الفقراء
تسكب الفرحة فى أعين أبناء العراء
تمسح اليأس عن الاجفان
وتعيد الضوء والألوان
لصباح التعساء
لعيون البؤساء
للذى ينتظر
أملا قد يزهر
بين طيات المساء

* * *

سقطت سايغون ، وانهد الاوان
واستفاق الأقحوان
فى جراح الأرض ، وارتاح الأوان
إذ رأى العائد يسرى فى شرايين المدينه
زهرات الرز تاج لجبينه
ورؤى التحرير نبض بيمينه
وسنو الموت ينابيع عيونه
يرفع الاشلاء بندا

فوق أطلال بقايا مزرعه
مرة أخرى ،
غـدا
سوف تأتيها الفصول الأربعه .

* * *

نفخ الثائر بالايمان فى وجه السماء
فهوت كل أساطير « الأمم »
واذا الساحات بالفتتام أشلاء ودم
فجـأة ،
من بينها مد ذراع
إصبع نائئة نحو الفضاء المدلهم :
« سقطت سايغون ، إن الوعد حق
فللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق
سقطت سايغون من كف المنيه
وآعتلت عرش الحقيقه
بندقيه !
أفبعد اليوم يسأل
عن طريقه ؟!

هـ. ب.
تونس فى 30 أفريل 1975

بزناس في رحلة الايام

قصة بقلم : رضا بورخيص

نظرت إلى الكأس فى عطش صحراوى ، ثم رفعت بصرك لتغرسه فى ظهر الجرسون المنصرف يجر « خفه » العريض كالجمل المريض ٠٠ وانسلت من شفتيك ابتسامة خفيفة فيها السخرية ، وفيها الالم ، وفيها الشفقة ٠٠

ـ « مسكين !! العام واثناش اشهر بالطبق !! »

كنت فى ركن المقهى المكتظة بالمقاعد الشاغرة، والفراغ، وبأصوات حفنة من « المزمرين » يحطمون احدى الطاولات بأكفهم الخشنة :

ـ هاو اللص !
ـ هاو الكوال !
ـ هاى المجيرة !
ـ قهوة كحله يا !!
ـ كاس تاى !!
ـ اسمع ٠٠ انت يزى بلا سرقة !
ـ بـره ٠٠٠٠٠

البطالة ٠٠ والكارطة ٠٠ والقهوة الكحلة ٠٠

هم ايضا مساكين ، مثل الجرسون ، ومثل صاحب المقهى ، ومثلك أنت !!٠٠ نعم أنت ، أنت !!!٠٠ مالك اشمأززت ؟!٠٠ وماذا يميزك عنهم ؟!٠٠

ورددت من حيث لا تشعر :

ـ لا شيء !٠٠ كلنا ولدنا فى ليل بلا قنديل ، ولم نعرف أبدا لا الشمس ولا خرير الوديان ، ولا عبير الورود ٠٠

ـ أف ! كفى فلسفة كفى !!
ـ حتى أنت مسكين معنا !
ـ أجل ، مسكين كوجهك المرسوم على اوراق الخريف ، وعلى القبور القديمة ، وكسروالك المرتق للمرة الالف ٠٠

وتركته يهذى ٠٠ يهذى ٠٠ ويعيد كلاما لم يعد له معنى منذ زمن ما دام

لم يتزحلق بعد على أرصفة المدينة ، وما دام ينتحر باستمـرار فى الزوايـا الرطبة ٠٠وغصت فى عمق الكتاب بكل ما أوتيت من ذكاء وفطنة وولوع ٠٠ رحت تقرأ ٠٠

كتابة كخطوط نملية ، وأفكار كزحف على كبريت مشتعل ٠٠٠

قال لك والدك قبل ان تبتلعه الارض ، وكان رحمه الله رجلا طيبا ، يصلى ، ويصوم ، ويزكى ، يأكل ما حضر ، ويلبس ما ستر :

ــ يجب ان تقرأ يا ولدى ، وان تنجح ، وان تصير رجلا ذا بال !!

وكانت نصائحه حفرا عميقـا على قلبـك ، فآمنت بالمبـدإ وانصهرت فى الكتب ٠٠

وقالت لك أمك آلاف المرات :

ــ « حط الملح فى عينيك ! »

فوضعت فيهما مع الملح ، الحل ، والاشواك ، حتى أجبرت فى النهاية علي الصاق نظارتين بوجهك ، وخلع عليك اولاد الحومة مازحين لقبـا جديـدا : « دكتور ! »

« دكتور !! يا دكتور !! يا بو مرايات !! »

وقال لك أحد الصحافيين :

ــ ماو تسيتونغ كان لا ينام الليل ، وكان يحرق الشموع ، ويقاوم البرد والالم والجوع والكرى ٠٠ وفى النهاية حرر الشعب ٠٠

وقال لك ، أنه قطع أطول مسيرة على طريق معوجـة شائكـة ، فأحببت المسير ، ونزحت فى كل يوم من القرية الى هذا المقهى المنتحب على الامواج ، وهربت مثلما هرب جماعة الكارطة من جوع القريـة وضجيجهـا وسيـارات « المركنتيه » ٠٠

انتهى الفصل ، فرفعت رأسك « المغوف » ، وسرقت قبلة من كأس القهوة الباردة ، التى أحببتها منذ الصغر ٠٠ بيتكم لم يعرف حليب البقر ، ولا الحليب المصبر ، فكانت القهوة الكحلة فطور الصباح ، وهدية للضيـوف ، وتطييـر قلـق ٠٠

ـ « هاى سبعة الحية ! »

وصاح أحدهم : « سارق !! سارق !! ما يساعدنيش !! »

وتعالى السباب ، واصطدم بالسقف المشقق ، وانقلب كل شىء رأسا على عقب .. وصاح صاحب المقهى فى الجماعة بغضب :

ـ «اخرجوا على !! اتعاركو لبعيد !! ابزوز سوردى ، باش اتكسرولى عشرة اكراسى !! »

وخرجوا كلهم يجرون « شلايكهم » فى كسل :

ـ « أقعد فيها وحدك كيف البومة !! .. »

ولعن .. واستعوذ .. وحوقل .. ثم رجل الى كرسيه « لينش » الذباب ، و « يبيع الريح للمراكب » ..

الشمس فى رابعة النهار والمقهى خال الا من الكراسى النخرة وصديقك وصاحب المقهى وابنه الجمل المريض ، وصراخ الامواج من تحت الصخور الجامدة .. البحر !! البحر !!

« آه ما أحلى ، وما أبغض البحر !! حلو كالسكر .. وبغيض كالعلقم !! » أنت لن تنسى البتة ابحارك فيه على شفتى سائحة شقراء ، « قفزت » بها على الشاطىء .. وكانت أياما !! ..

ولكنك لن تنسى أيضا شقيقك الذى سافر بدون رجعة الى أعماق هذا البحر بعد ان بح صوته بين المقاعد وفى الشوارع : « تكتك ابدورو اثليبات .. اثليبات اسخان !! » ، فكانت حرقة ، وألم ، وطوفان من الدمع ، ونحيب أمك لا ينتهى « يا نارى على ولدى .. » ، مسكينة أكثر من الجميع !! أرملة ، وثكلى ، وكادحة من أجل أرغفة خمسة : هى ، وأنت ، وأخوك الذى انصرف يبيع الماء على طوار المحطة : « اشريبة ماء يا عطشان .. اشريبة باردة !! .. » والآخر الذى فر من المدرسة منذ الصبا ، وخير التمدد المستمر تحت السيارات والوسخ والعرق ودراهم معدودات : « أبرنتى !! ديما أبرنتى !! » ، وأختك الكبرى التى بصقها زوجها على العتبة بعد ان أغرقها فى الاصفرار ، فرجعت الى « خربة » أبيها بحق مسلوب ، ولوعة عميقة ، وعبرة زرقاء ..

تذكرت أنك أمام الكتاب ، وأمام المبدأ ، فحرقت القلم ، وأوقفت الكاميرا ، وغصت من جديد فى الورق الاصفر ..

تقرأ ٠٠ تقرأ ٠٠ تقرأ ٠٠ ثم سيجارة ، ونفس طويل ٠٠ طويل كالالم الذى رضعته مع الحليب ، وكتب على جبينك قبل البدء ٠٠

(أهلا بالالمانية) !! Gutentag

« أف ، ماذا يريد هذا ؟!! ماله يأكلنى بعينيه كالجائع ؟!! »

ولم ترد التحية خوفا من جشعه ، وتجاهلته ، ولكنه كان يلح ٠٠ كان حصانا هائجا ٠٠ ألمانيا والعياذ بالله !!

وأثار شفقة صديقك فحياه ٠٠٠

ـ ٠٠٠٠٠ ؟!!

ـ ٠٠٠٠٠!!!

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ !!

وغرق معه فى هذار ، فيه الضحك ، والسجائر ، والاغراء ٠٠

أنت كرهت هؤلاء « الحصنة » ، وكرهت مالهم العريض ، وعناوينهم ، وهداياهم ، و « ويسكيهم » ٠٠

فى الماضى كنت تلهث باستمرار وراء ظهورهم ، لأن للضرورة أحكاما ٠٠ وكانوا يموتون على جسدك ٠٠ وكنت تأخذهم قنطرة عبور لنهود نسائهم ، ولتفجير الحرمان ٠٠ كنت معذورا فى ذلك الزمان ٠٠ كان أبوك « خدام حزام » ولم يكن لك « مصروف » ولا كتب ٠٠ ولم تكن لك بنات عم ولا بنات خال ، وكنت قبيحا كباب الدار الذى ستر عاركم ٠٠ فكنت اذن مجبرا على التنازل عن أخلاقك وقواك لهؤلاء « الهرسيين » ٠٠ فكانت رحلات صيد ظافرة على الشاطىء الممتد ، وأمام النزل المتسلسلة على حافة البحر ، وأصبحت ذات يوم محترفا من طراز ممتاز ، فعرفت « بالبزناس » ٠٠ وخرج شعرك عن القانون كالاعشاب الغابية ، وركضت كالدنجيون وراء المستحمات ٠٠ وركض وراءك أزواجهن بالعطر « والوسكى » ، والسيجارة ، و « اللادراس » ٠٠ وراح هذا يجود عليك بسروال ، والاخر بحذاء ، وذاك بـ «دجاكيتة » من نوع « ايبلودجين »٠٠ ورحت تستجلب « التوريستات » الى البيت ، أحيانا تحت ستر الظلام لتقضى بهن ليلة بدون جفون ، وأحيانا أمام كل العيون الواسعة٠٠ « والقيل والقال » ٠٠ و « التقطيع والتريبش » ٠٠ ونقط الاستفهام الجحائية٠٠

ولكنك لم تكن مجرد « بزناس » ·· أجل ! كلهم اعترفوا أنك مثقف من الصنف الرفيع··كانوا يرونك حافى القدمين··أغبر··أصفر·· فى أسمال·· تقطع طريق البحر العملاقة ، منكبا على سطور وأحرف لا يفهمونها ·· كنت تفهم مليا « لفرنسييس » و « لنفليز » و « للمـان » ·· وكـانت لـك معرفـة واسعة··وكنت تحدث زملاءك «البزناسة» عن طه حسين ، وماركس ، وماو ، وسارتر ، وكامو ، وكنت تحدثهم عن الفقر فى الهند ، والرأسمالية فى أمريكا ، والشيوعية فى الصين ، والالم فى فلسطين ·· كنت تحدثهم بكل تواضع ·· وكنت تشعر فى أعماقك أنك تؤدى رسالة ·· وكانت آذانهم تتسع اليك يوما بعد يوم ، وكانوا يمدحونك للسائحات ، عندما تمر بنظارتيك والكتـاب ·· وسمتك إحداهن « لنتلكتيال » ··

غير أن جرحا داميا كان يحفر باطنك بمرارة كلما تذكرت أنك تصـلى تحت أقدامهم ، وتمد يدك عجفاء ، كما تمد أيدى المعوزين أمام أبواب الكنائس ·· كنت تثور عندما تفرش لهم كرامتك وردا ، وفلا ، وياسمينا ، وتسمح لهم بجسمك يمتصونه نساء ورجالا تماما مثلما تمتص السيجارة أمـام مشكلـة فلسفية ، او مشكلـة مـال ·· مـال ·· مـال !·· وكنت تـواصل الرحلـة « التشكيلية » رغم ·· رغم ·· رغم ·· لأن الخبز والجنس كفاح ضد الموت ، وأنت تكره ان تسقط فى الدرب جائعا ، أو أن يصرخ جسدك حتى الجنون ··

وتآكلت ذات يوم ·· ولازمت ــ الدكة ــ لمدة طويلة ·· وعرف كل الناس أن « التوريست » هم السبب ، لكنهم لم يعرفوا أيضا ان المـال هـو السبب الحقيقى ، وأنه كان يرميك بشدة فى الميدان ··

وكرهت منذ تلك اللحظة الشاطىء ، و « الالمان » و « السويدوا » ··

* * *

لم تبق الا ايام معدودات للامتحان ، بعدها ستزغرد لك أمك بكل قواها ، أو ستدفن نفسك من جديد فى هذا الركن ،وفى قلبك حرائق وخنادق وحفر·· وسيأتى لك الجرسون مرات أخرى بالقهوة السوداء ، وستأمره وقتئذ بحذف قطع السكر ··

ولكنك على كل حال تستبعد الهزيمة ما دمت مؤمنا منذ المنطلـق ان « من سار على الدرب وصل » ، وأن « من تتعلق همته بما وراء العرش ينله »

اذن مطالعة ٠٠ وكتب ٠٠ ودفاتر عريضة ٠٠

بضوء الشمس ٠٠ وضوء الشموع ٠٠ وضوء العينين الغارقتين ٠٠

بالبيت ٠٠ والمقهى ٠٠ والطريق الممتد الخالى ٠٠

بالقهوة الكحلة ٠٠ والسجائر ٠٠ والصبر الأيوبى ٠٠

٠٠ وانطلقت دقات الجرس ، كأنشودة جنائزية ، رقص لها القلب رقصة هندية ٠٠ ثم احتضنك مقعد أصم ، أبكم ، أعمى ٠٠ كنت كالعادة فى أطمار ٠٠ وصورة أبيك المرحوم حفر على مقليتك ٠٠ وأمك واخوتك أنين فى أعماقك٠٠

مر أسبوع ٠٠ اثنان ٠٠ ثلاثة ٠٠ ونهارك ليل ، وليلك نها ٠٠ ثم انتهى شهر ٠٠ ويومها نزل المطر مدرارا كغير العادة ٠٠

المطر ٠٠ المطر ٠٠ وأنت تجرى ٠٠ تلهث ٠٠ والمطر يلهث ٠٠ يلهث ٠٠ والجريدة تبتل ٠٠ تبتل فى يديك ٠٠ تبتل تحت خرقك ٠٠ ثم عرجت الى الزقاق الضيق ٠٠ واعترضوك أمام البيت تحت المطر بوجوه مهللة ، وأيد مفتوحة ، وألسنة ملتهبة بالدعاء ٠٠

— « أماه !! لقد ٠٠ نجح !! »

— رو ٠٠ رو ٠٠ رى ٠٠ رى ٠٠ رو ٠٠ رى ٠٠ رو !٠٠٠ »

وزغرد معها الجيران ٠٠ وليلتئذ كانت سهرة حتى الفجر : دربكة ٠٠ غناء ٠٠ وبنات الحومة فى رقص قروى ، وصدور مهتزة ، واحمرار ، واحلام تشتبك بعنكبوتية فى عالم الخيال مع أحلام أمك المنعشة ٠٠

المستقبل اللازوردى ينطلق مع آخر عربة لقطار العطالة الطويل ٠٠ المستقبل حلم بدأ يعيش فى أذهانهم منذ أن رأوك تتأبط المحفظة لتتجه الى « الكتاب »

المستقبل رتيب تمنحه لك الجامعة كل شهر ، لتتنازل عن ثلثيه لأسرتك التى لم تر الا الدخان ٠٠ الدخان ٠٠٠

ر٠ ب٠

في رحاب الذات

بقلم البشير المجدوب

أن تغمض عينيك وتسوح ٠٠ وتهيم شراعا مطلقا الى غير غاية

أن تسكت هدير الحاضر باشارة منك ٠٠ بلمحة من وجدانك فيسلس لك ويلين كأنه القط الصغير عند قدميك في وداعة وسكون ٠٠ قد انطوى على ذاته حتى لا تشعر بوجوده ، وتطامن أصغر ما يكون
الحلم ! الحلم ملاذك الأخير !

لكأن الزمن توقف ٠٠ لقد خفت نبضه الثائر الصاخب ٠٠ وكأن تيار النفس كف عن اطراده وفيضانه ٠

لقد تراجعت أمواجه وانقلبت الذات ينصب بعضها في بعض كأنها النهر انعكس مجراه قد شاقته أمومة الينابيع

ها قد وقعت في شباك الماضي ٠٠ في أسلاكه الشديدة الرخوة ٠٠ أرود أعماقه وأسبح كما أشاء في أغواره

وأطوف ثم أطوف كأني أدور حول ذاتي لا أريم ٠٠ سجينا مرسلا في ملكوت لا حد له

ما أبدع أنوار الحلم كأنها الوجوه المشرقة الوضاءة تزيد في فتنتها الحجب الرقيقة والاقنعة الشفافة !

يا لها عتمة ثرية خصبة تزخر بالصور والاطياف ٠٠ نبعا فائرا ٠٠ غيثا هاطلا ينغمس فيه كياني أتشمم برده ونداه ٠٠ وأمرح في سيله الدافق مرح الصبي الغرير !

اني أحس دبيب النسغ يعلو هبوطا ٠٠ وتمتد الجذور وتتمطى ، وتغوص أعمق فأعمق ، تعتنق التربة الام في لهفة النائي الغريب رفعت عنه حرقة اليتم ومرارة الحرمان

لقد هبطت ذاتي الى ذاتي تتنسم الحياة ٠٠ كالنبتة البحرية تنتعش وتزدهر في ظلمة الاعماق

لقد اتحدت بالجذور ٠٠ ان أنا الا جذور صادفت القرار

أنا الآن في القسم ٠٠ بالمدرسة ٠ والساعة أجمل ماتكون ٠٠ عشية ربيع٠٠ سماء لطيفة رقيقة الغيوم ، وكأني غائب عن هذا المكان بل أنا في الحقيقة حاضر غائب وقريب بعيد

هؤلاء الفتية والفتيات قد انكبوا على الدرس أمامي ٠٠ لكأن حدود ذواتهم انفرجت وتراخت اتساعا وشمولا فاذا أنا أرى من خلالهم وجوها عديدة لا حصر لها ٠٠ وجوها معروفة مألوفة وأخرى لا اكاد أتبينها ٠

أأشخاص تميزت ملامحهم وهيآتهم وتفرد كيانهم !؟

بل رموز حية حفلت كثرة وتعددا ٠٠ حضور جماعي زاخر تداخلت وامتزجت فيه الوجوه والتبست الصور والاطياف في دوامة باهرة الاشعاع تتردد بين الحاضر والماضي وتنبثق منهما معا !

بساط عجيب اشتبكت فيه الخطوط والالوان وتسامت اشراقا وانسجاما ٠٠ كذا نسيج الماضي معان متداعية موافقات غريبة وأصداء متجاوبة ٠

هؤلاء التلامذة يشملهم بصري كتلة بين النكرة والمعرفة مزيج منهما ٠٠ شخصية مشاعة غريبة مأنوسة ، أتحسس من وراءها كيانا غامضا مترامي الاطراف بعيد القرار ، تطالعني منه أجيال وأجيال أنا الآن في هذه اللحظة بالذات حافزها المشترك والمشرف عليها الوحيد

وعبثا تحدجني نظرة تشع ذكاء ويحاول وجه وسيم ان يتميز ويبرز بين الحاضرين ، ويستأثر بلفتة عطف دون الجميع ، يريد ان يجذبني ويشدني اليه ٠٠ سرعان ما استعيد حريتي وعدالتي وحيادي الابوي بين هذه الجماعة المتكاثرة المجهولة ٠٠ في رحاب هذه الاسرة المحببة الصديقة ٠

ها انا كما كنت ، بفضل اخواني ، لا تفاوت في الوجود ٠٠ تمام الاستواء وتمام التجدد ٠٠ شباب لا يبلى ولا ينضب تملأني لذة فريدة قاسية هي طعم الديمومة العابرة والخلود المتناهي المجدد ٠

ب٠ م٠

عينان من تونس

إلى « شادية » صاحبة العينين اللتين
تشعان بكل سحر تونس وجمالها . .
ذكرى لقاء عابر فى « توزر » .

شعر : حسن كامل الصيرفى

●

من أجل عينيك شرعت القلم
ورحت استوحى جميل النغم
فهل لهذا اللحن من شاديه
تنشده للنسمة الساريه ؟
فرجعيه أنت يا « شاديه » !

●

الشاعر الفنان حر الخيال
لا يعرف القيد .. فهذا محال
الشاعر الفنان راعى الجمال
ان ضل فيه كان هذا الضلال
هدى الهوى للأنفس الصادية
لكل لحن يرتجى الشاديه ..
فرجعيه أنت يا « شاديه » !

●

عينان من « تونس » قد طافتا
كما يطوف الحلم بالحالم
فى هذه الفردوس فى لحظة
ألفتا للمسمع الهائم
لحنا يهز الأنفس الغافيه
فرجعيه أنت يا « شاديه » !

●

عينان من « تونس » فياضتان
بالوحى .. بالنور .. بسحر الجنان
فجددى للقلب أشعاره ..
وحركى للشعر قيثاره .. !
ورجعيه أنت يا « شادية » !
فأنت .. أنت الوحى والراويه !

توزر فى 75/3/26

ح. ك. ص.

الانهيار العصبي والنفساني ما بعد الحمل والولادات المتكررة

بقلم : الدكتور سليم عمار (*)

لقد كانت تونس الى عهد غير بعيد من البلدان التى تعانى بالنسبة لغيرها من البلدان النامية نموا سريعا جدا فى معدل الولادات ومن البديهى والحالة هذه ان تتعقد من جراء ذلك فى بلادنا المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بالاضافة الى المشاكل الصحية التى أصبحت تدور عند المرأة التونسية أولا وبالذات حول موضوع الحمل والولادات المتكررة والاجهاض التلقائى والرضاعة الطويلة المدى كما انها تشمل تربية الاطفال ورعاية الاسرة فسلوك الام واتزان مقدرتها على القيام بمسؤوليتها الكاملة داخل العائلة وخارجها بصفة عامة ٠

هذا وان الموضوع يهم حتميا لا مصير المرأة فقط بل كيان الخلية العائلية من جهة اخرى فمصير المجتمع بل وفى آخر الامر اذا تعرضنا للموضوع بالنسبة للعالم الثالث يصح لنا ان نقول انه يهم مستقبل الكيان البشرى بصفة اعم هذا وان الامر لا يهم مباشرة المراة التونسية فقط بل المرأة العربية الاسلامية وبالتالى وبصفة عامة المراة التى تعيش فى البلدان السائرة فى طريق النمو والتى تتصف اجمالا وبالرغم من الفوارق الجزئية بعادات وتقاليد مماثلة وباسس اجتماعية وديموغرافية واساليب عيش متشابهة ٠

تكاثر الولادات وتاثيره على اتزان المراة وكيان الاسرة والمجتمع

ان الولادات المتعددة تكاد تنتج من جهة عن تعدد الاتصالات الجنسية فى الاوساط الشعبية خاصة بالاضافة الى قلة الملاهى الترفيهية فى المستويات

(*) الدكتور سليم عمار هو رئيس مصلحة جامعي وأستاذ مبرز بكلية الطب حاول فى هذه الدراسة استخلاص الاستنتاجات المتعلقة بالتنظيم العائلى ٠

الاخرى مثل النشاط الرياضي والفني والثقافي والاجتماعي بصفة اعم ومن جهة اخرى فهي ترجع الى جهل او تجاهل الوسائل الوقائية للحمل او عدم الاقبال عليها من طرف الزوجين وخاصة الى عدم اكتراث الرجل لكل هذه المسائل باعتبار ان الولادة امر يقتضيه القضاء والقدر ولا يجوز للمرء ان يتحكم فيه بصفة من الصفات وعلى هذا الاساس وبتكاثر الحمل والولادات اصبحت المراة التونسية عاجزة اكثر فاكثر عن القيام برعاية ابنائها وتربيتهم على اسس ثابتة فضلا عما ينتج من انحراف فى جسدها واضطراب فى اعصابها وعدم استقرار فى نفسيتها وتوتر وشذوذ فى سلوكها داخل العائلة وخارجها وفى المستوى المهني والاجتماعي بصفة عامة . وان تلكم الاضطرابات العصبية والنفسية تصبح بمثابة مرآة مضخمة تنعكس عليها المآسي والاتعاب العديدة التى تتكبدها غالبا المراة التونسية منذ زمن بعيد يرجع الى عهد ولادتها الاولى الامر الذى لا يكترث ولا يبالى به أحد فى أغلب الأحيان . هذا وإن أعظم الاسباب المرضية وأهمها تتجمع فى حالات نخص بالذكر منها :

اولا : العوامل التكوينية والوراثية من ضعف فى الطاقة العصبية وانحراف فى المزاج والاخلاق .

ثانيا : الاضطرابات الصحية المعهودة فى طور الحمل من تشنج عصبي عام وخلل فى نشاط القلب والكليتين واختلال فى وظائف التنفس والجهاز الهضمي (ضيق التنفس والربو والقيء الدوري . Asthme, et vomissements cycliques)

ثالثا : النزف الدموى الذى يعترى المرأة بمناسبة كل ولادة واجهاض وما يؤدى اليه اذا كان شديدا ومتواليا من خلل فى مختلف الوظائف الحيوية بصفة عامة .

رابعا : حالات التعفن الناجمة عن الجراثيم الفتاكة التى تتفاقم خطورتها احيانا سواء كان هذا التعفن منحصرا محدودا فى الرحم والاعضاء التناسلية او منتشرا فى الجسد كله فى مرحلة ثانية .

خامسا : الاضطرابات التى تدخل في وظيفة الاغتذاء Troubles métaboliques التى تنتج عادة في بلدنا عن سوء التغذية وكذلك عن ارضاع الطفل الى الثانية من العمر وما بعد .

سادسا : العبء الثقيل الذى تتحمله الأم عند قيامها بشؤون أولادها وتربيتهم بما فى ذلك من تضحيات نفسية جسيمة واتعاب جسدية قاسية .

سابعا : الانحراف الفيزيولوجي المتضاعف بتغييرات افراز الهرمونات sécrétion hormonale واختلال وظائف الاغتذاء Troubles des métabolismes واضطراب الجملة النباتية العصبية — système neuro végétatif والجهاز العصبي الارادي من جهة اخرى وهي اضطرابات تصاحب دائما حالات الحمل والولادة والارضاع وعلى هذا الاساس نذكر الاطوار الآتية :

أ ـ الانقطاع الفجائي لافراز الهرمونات الاساسية ·

ب ـ الاصلاح التدريجي الذي يدخل توازن الجملة النباتية العصبية التي كانت مضطربة وقت الحمل ·

ت ـ استعادة نشاط جهاز الغدد الصماء الذي يختلف في الشدة والسرعة باختلاف الامهات المرضعات مع الملاحظ ان آخر جهاز يستعيد وظيفته هو جهاز الغدد النخامية والتناسلية · (système hypophyso-ovarien)

ث ـ يحدث الارضاع اضطرابات في وظيفة الاغتذاء بواسطة افرازات الغدة النخامية والايبوطالموس Glande hypophyse et hypothalamus ·

وبناء على كل هذه الاعتبارات نفهم اذن لماذا انتبه الانسان منذ أقدم العصور الى الامراض النفسية والعصبية الطارئة بعد الولادة والاجهاض وقد وصفها ابقراط وغالينوس وابن سينا والرازي · وفي القرن الماضي اهتمت الابحاث بالعوامل التكوينية الموروثة ثم بالتعفن والتسممات الذاتية Infection et auto-intoxication واليوم يركز الاهتمام على الغدد الصماء من جهة وعلى العوامل النفسية والاجتماعية المشاهدة بصفة مطردة من جهة اخرى **وان معاينتنا الشخصية منذ ما يزيد عن عشرين سنة تدعم هذه الاستنتاجات كلها** كما اظهرت العوامل الاساسية المتجمعة في مثل هذه الحالات بالنسبة للمرأة التونسية وقد اعتمدت دراساتنا السابقة خلال السنوات التالية وذلك منذ عهد 1958 ـ 1959 ـ 1960 ـ 1961 فكانت المريضات التي عايناهن مصابات بابرز الامراض النفسية المعهودة باستثناء عدد وافر من الامراض العصبية البحتة المرافقة للحمل ، والاضطرابات العصبية النفسية الطارئة ما بين الحمل والولادة نذكر منها في فترة الحمل عصابات القلق والحصر والهستيريا Toubles psycho-névrotiques واعراضها الهضمية (القيء) والتنفسية (شبه الخناق والربو) والعصاب الخمودي Dépression névrotique

نخص بالذكر منها : الصداع والدوار والاوجاع المتنوعة الـخ ٠٠ اما فى فترة الحمل وما بعد الولادة وكنا ولا نزال نلاحظ الخمود المستمر الناجم عن اسـبـاب بـاطنيـة وكـذلـك التشنجـات النـاتـجـة عـن قلـة الكلسيوم Spasmophilie ومرض الاكلاسية Eclampsie ونوبات الصـرع والتهابـات الاعصـاب الشوكيـة (Polynevrites) التى تصاحبهـا اضطرابات نفسية شديدة ويعبـر عن هـذه الحـالات بالاعـراض العصبيـة النفسية Troubles neuro-psychiques وهى تعالج عادة خارج المستشفى لكن الامراض العقلية الشديدة التى حللناها بالاولوية تهم النساء اللائى عولجن داخل المستشفات فافادتنا تلك التجارب فكرة واضحة عن خطورة المشكـل وعن مدى تاثيره وضرورة معالجته معالجة ناجعة شاملة فى اقرب الاجال ، **فمنذ سنة تسعة وخمسين وتسعمائة والف اى منذ الاستقلال تقريبا وانطلاق حركة تحرير المرأة** قد عاينا والحمد لله **تعديلا محسوسا فى هذه الاوصاف المرضية خاصة فى** مستوى **العوامل النفسية والوجدانية** لكن وطأة الاشكـال الاجتماعية والتقاليد الزائفة والاسباب العضوية المرضية الكلاسيكية لا تزال قائمة الذات الى يومنا هذا بالرغم من بعض مظاهر التقدم فى هذا المضمار ٠ فمثلا حينما كانت الاضطرابات المرافقة للحمل وما بعد حتى الارضاع تقـدر بأوروبا بالثلث فاننا نجد فى تونس نسبة واحد على سبعـة وبعكـس ذلك فان العوامل العصبية التكوينية الموروثة Facteurs constitutionnels تكون عندنا تافهة جدا 15 % بالنسبة للاحصائيات الغربية وهكذا تتجلى عندنا خطورة العوامل الظاهرية الخارجية Facteurs Exogènes بما فيها العوامل العضوية Facteurs organiques (ربع ملاحظاتنا) نخص بالذكر منها الالتهاب وتعفن المهبل والرحم والمبيضين utéro-annexites وقرح الثدى وانحرافات الكبد والمرارة وتعفن الكليتين وفى الربع الثـانى من بقية العوامل المتسببة فى المرض نجد الصراع الخطير بين الزوجين ثم فيمـا يقرب من 40 ٪ نلاحظ الاعياء والانهيار الجسدى والتحول الناتج عـن تكاثـر الولادات ٠ اما فى الاصناف الكلينيكية السريرية لتلك الاضطرابات العقلية فقد عاينا عادة حدوث الشكل الهلسى والاختلاطى

Forme de manie confuse

وقد ادت هاته الحالات الازواج الى العنف والضرب وطرد نسائهم من منازلهم الخ ٠٠٠ وذلك ثلاث مـرات على أربـع ، وهو خليط من التهيج الهوسـى والهلوسة والغموض والاختلاط الفكرى ٠

وفى ثلث ملاحظاتنا عدت المراة على رضيعها وابنائها الاخرين حتى انها حاولت اغتيالهم وكثيرا ما نجد حالات هذيانية غامضة قليلة الارتباط والانسجام فيما بينها تكتسى مواضيع الاضطهاد والسحر والتسميم السحرى المتولد عن التطير والخرافات والعقائد التقليدية الزائفة المنتشرة فى بلادنا فلاحظنا ذلك عند ٪ 80 من المريضات ٠

وعند النكس تطورت الحالة الى تركيز امراض عقلية مضبوطة التشخيص بالنسبة لاربعة اخماس من الحالات وهى النفسات الهوسية الخمودية Psychose maniaco-dépressive والفصام وتشتت الذهن Shizophré nies والنفسات الهذيانية الهلسية المزمنة delires hallucinatoires chroniques هذا وان العوامل الوراثية العصبية وزواج الاقارب لم نعثر عليها الا فى نسبة واحد على سبعة فتبرز إذن بعكس ذلك أهمية العوامل الظاهرية الاخرى كالتعفن وسوء التغذية والتسمم وانحراف الغدد الصماء والاتعاب والاعياء بصفة عامة ولا سيما الاضطرابات النفسية والوجدانية والعراقيل الاقتصادية والاجتماعية المتعددة٠هذا وانه بتكاثر الحمل والولادة تشتد كل هذه العوامل لتضاعف المرض فالنصف من المريضات نكسن اثر حمل جديد فى مدة لا تقل عن سنة واما النصف الثانى فقد انكس ما بين السنتين والثلاثة بعد ولادة جديدة ولا شك ان نسبة الانحراف هى عند البكر أقل منها عند المرأة التى ولدت كما ان تفاقم المرض يكون بالخصوص عند النساء فيما بين العشرين والاربعين من العمر اللائى ولدن اربع او خمس ولادات وقد اصبحت الاضطرابات تتجلى بصفة واضحة فى الولادة الثانية والثالثة وتتعقد فى الولادة الخامسة والسادسة فتزداد تعكرا بالنسبة لثمانية اولاد فأكثر ولقد عاينا مرة أربع مريضات من ذوات سبعة عشر او حتى عشرين ولادة فاكثر ٠

ضرورة تنظيم الاسرة

ومن هنا كان لا بد من تنظيم الاسرة فى عديد من المناسبات اذ اصبحت الاسرة يوما بعد يوم متنوعة الاحوال ومتشعبة الاشكال ٠ وفيما يخصنا لقد استنتجنا منذ عهد بعيد وبالضبط منذ سنة 1962 عندما قمنا بدراستنا الاولى فى هذا المضمار انه يتحتم اتخاذ اجراءات محكمة فى ميدان تحديد النسل والاجهاض المبكر لكل هؤلاء الامهات اللائى اصبن فى وقت من الاوقات باختلال عقلى او بوهن عصبى او باضطراب ما فى اتزانهن النفسانى ٠ ويكاد يكون عدد اولئك النساء اوفر مما يظن فى اول وهلة حيث انه يكاد يهم اغلبية

الامهات وحتى النساء اللائى لا يحملن الا مرة واحدة وحتى البكر منهـن فى بعض الاحيان ٠

ولقد استنتجنا منذ ذلك العهد

١) ـ ان الوسائل الواقية للحمل التى اصبحت لابد من انتشارها وتعميمها ما زالت تتعطل لعدة عوامل منها الحياء والتردد والاشمئزاز والجهل والاقاويـل الزائفة المرتكزة اما على تقاليد دينية منحرفة أو على مخاوف وهمية كاذبة ٠

٢) ـ لذا فعندما يحصل الحمل بعد ولادات عديدة والمرأة عازمة حينذاك كل العزم على التخلص من هذا الحمل فعلى الطبيب اذن الا يقتصر على نطـاق اختصاصه الضيق المحدود ولا يكتفى بنظرة جزئية ولا يمكن له ان يتجاهـل السوابق المرضية بدعوى انها بعيدة او ينتظر حدوث اصابة عضوية خطيـرة ليقدم على قطع حمل قد اصبح منذ زمن يهدد فى الحقيقة وفى آخر الامر صحة المرأة واتزان اعصابها وشخصيتها الشاملة بصفة اعم ٠

3) ـ يجب اذن ان يقع فحص كل حامل بصورة كلية من الناحية العضوية والوظيفية بالرجوع الى حالاتها النفسية والانفعالية والوجدانية الشاملة بما فيها من انعكاسات وارتكاسات جنسانية وجسدية محسوسة مع اعتبار كـل ما للمرأة من سوابق فيما يخص الولادات الماضية من حيث العدد والتأثير على التوازن العصبى والنفسى وعلى الجسم بصفة عامة ٠

٤) ـ فالصلات الجنسية من جهة والعلاقات الزوجية والعاطفية من جهـة اخرى وتاثيرها والمسؤوليات العائلية وتحملها ثم المشاكل المهنية وصعوباتها كل هذه العوامل تؤدى الى‌عدم تحمل المرأة حملا جديدا **أو فى بعض الاحيان ولو حملا واحدا** وان عدم التحمل هذا وبعبارة اخرى رفض الحمل هـذا يتسبـب فى حالات قلق عنيفة ونوبات حصر حادة ثم احيانا فى الصـراع الـزوجى والاضطرابات الوظيفية المتعددة وان المرأة التى ترفض الحمل ترتكز عادة على تجارب فردية مؤلمة ومنعكسات شرطيه **Reflexes conditionnés** فى الجسد بصفة مباشرة او غير مباشرة عن طريق المخاوف الناجمـة عـن تجـارب غيرها من النساء فى هذا الميدان وكل هذه العوامل تصبح تهدد حتميا المرأة فى توازنها العصبى وفى صحتها الشاملة بصفة عامة ولربما يصبح الجنيـن نفسه مهددا فى حيويته وسلامته من جراء ذلك

وقد بينا هذه الاستنتاجات فى المجلة الطبية التونسية عدد 1 جانفى فيفرى سنة 1962 Tunisie Médicale N° 1 Janvier-Février 1962
Les Psychoses de la grossesse, de l'accouchement et de l'allaitement

والفتنا انظار المسؤولين بكل الحاح الى هذا المشكل الخطير وهكذا مع زيادة التيقظ وارتفاع درجة الوعى فيما يخص هذا الميدان على كل المستويات وعلى صعيد نخبة متقدمة من المسؤولين وعلى رأسهم المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة ، شرعت تونس بعد سنتين فى تركيز حملات التنظيم العائلى بصفة تدريجية وفى مجال ضيق فى أول الامر ثم أخذ يتسع يوما فيوما من حيث الاجراءات المتخذة والوسائل المستعملة والنتائج الحاصلة وهكذا ومنذ عهد معاينتنا الاولى لهذا المشكل الخطير تعرضنا مليا فيما بعد الى معرفة تطور هذه الحالات المرضية الناتجة عن الاسباب المذكورة اعلاه . فتبين لنا فى السنوات الاخيرة مع تعدد حملات التنظيم العائلى التى ما انفكت تقوم بها الاوساط المسؤولة على اختلاف المستويات ان هذه الحالات المرضية بدأت تنخفض من حيث الشدة والانتشار فارتفع فى احصائياتنا التالية مثلا سن المريضات حيث اننا لم نعد نعاين النسوة الصغيرات السن وذلك يتجلى بصفة واضحة من دراستنا التى نشرت فى « المجلة الاخبارية للطب النفسانى بفرنسا » l'Information Psychiatrique (سبتمبر 1972) فهذا الانخفاض النسبى راجع بلا شك الى الحملات الوقائية التى شرعت فى القيام بها المنظمات القومية وفى مقدمتها الاتحاد القومى النسائى التونسى ، فالمصالح الصحية والادارية المكلفة بالتنظيم العائلى التى اصبحت امكانياتها تتطور وتتعزز يوما بعد آخر فى السنوات الاخيرة .

وعلى كل ومن خلال كل الدراسات التى قمنابها فى هذا الصدد توصلنا الى الاستنتاجات التالية وذلك منذ عهد بعيد وقد اصبحت الاحداث المتتالية تؤكدها باستمرار :

اولا : هناك مشكل تدور حوله جل امراض النساء فان تجمع العناصر العضوية والفيزيولوجية والنفسانية والاجتماعية فيه يجعله فى صميم ميدان الطب النفسانى الجسمانى Médecine Psycho-somatique حسب المذاهب العصرية المنتشرة اليوم فى الغرب والتى يعبر عنها بالاتحاد السوفياتى بمبدأ تفاعب مفعول غشاء المخ والاحشاء Pathologie cortico-viscérale
وهو ميدان اصبح رئيسيا لفهم الطب بصفة عامة .

ثانيا : ان البلدان التى يرتفع فيها معدل الولادات مثل البلاد الافريقيــة الآسيوية وتونس بلاد انموذجى منها تجابه نفس المشاكل فى مستوى صحة الام واستقرار شخصيتها الشاملة ثم فى اتزان المجموعة العائلية ورعاية الاطفال وتربيتهم بصفة اخص بالاضافة الى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتثقيفية العصبية التى تنجر عن ذلك ٠

ثالثا : ان اغفال ما ينجم عن ذلك عند المرأة من خلل فى وظائف الاعضاء وفقدان التوازن العصبى والنفسى يعتبر موقف جهل يتنافى مطلقا مع مقتضيات العلم الصحيح والقيم الانسانية السامية وبالتالى يصبح هذا الجهل او التجاهل من العراقيل الفتاكة التى تعطل تطور البلاد ونموها وتعاكس رفع مستــوى العيش لمواطنيها على مختلف المستويات ٠

رابعا : فعلى المجتمع على اختلاف عناصره وفى كل المجالات ان يـدرك اذن خطورة تزايد النسل فيقوم بحملات تنظيمية للاسرة بشتى الوسائل الكفيلة التى توفرها له العلوم الحديثة والتمويلات المادية والبشرية التى تقدمها لــه الاوساط الادارية المسؤولة اليوم فى أعلى المستويات فى هذا الميدان الحيوى ٠

خامسا : فبناء على كل هذه الاعتبارات وكلما اصبحت الوسائل الواقية من الحمل مخفقة عند امرأة ما يكون حينئذ من المحتم ان يفض الطبيب الحمل حسبما تشير اليه المقتضيات الطبية العصرية فى معناها الواسع وان يعمل بمقتضى ذلك على توفير جميع الضمانات الصحية والفنية لكل امراة ترغب فى اجتناب حمل جديد أو فض حمل قد حصل وذلك بدون اى تردد او شرط او احتراز ما وحتى فى عدم صورة رضى الزوج وعدم تفهمه للامر ٠

هذا ولا يسعنا الا ان نرحب اليوم بصدور القوانين الخاصة بهذا الامر اذ أن مجلس الامة بعد مصادقته فى السنوات الاخيرة على القانون الذى يخول للمرأة التى لها اربعة اطفال فما فوق ان تطالب بأبطال حمل جديد فيستجيب لدعائها اى طبيب كان بكل الوسائل الفنية المناسبة ــ فبعد هذه الخطوة الاولى الهامة اخذت السلطة التشريعية منعرجا حاسما باصدار القانون الاخير الذى يخول لكل امراة ابطال الحمل فى الثلاثة اشهر الاولى بمساعدة كل الوسائل التقنية والصحية العصرية وبواسطة اى طبيب كان ولو كانت بكرا واحيانا مع عدم موافقة الزوج وحتى خارج حالات الزواج الامر الذى يعبر عن منعرج ثورى حاسم يمكن لتونس ان تمتاز وتفتخر به ازاء جملة البلدان العربية الاسلامية

السائرة فى طريق النمو ولا يمكن لنا الا ان نستحسن هذا الاتجاه القويم الناجع الذى حصل اخيرا فى الافكار فى مستوى الحقل القانونى والنظام الادارى والهيكل الصحى بصفة عامة ٠

ولا يسعنا اليوم الا ان نعمل قدما كى تتسع حملات التنظيم العائلى وان تدخل حيز التنفيذ كل الاجراءات الكفيلة فى هذا الميدان فى نطاق برنامج عمل بناء يتواصل بصفة محكمة ويشمل كل المستويات الصحية والادارية والاجتماعية وحتى السياسية المعنية بالامر ٠

ولا يمكن ان نولى اهتماما الى الاقاويل الزائفة والخرافات الوهمية التى نتلقاها احيانا اليوم من افواه البعض من الرجال او النساء والتى ترمى الى تشويه بعض الطرق الوقائية مثل الحبوب الهورمونية او اللوالب البلاستيكية الخ التى هى من الوسائل الناجعة التى اتت بنتائجها الايجابية فى مئات الالاف من الحالات المماثلة حسب الاحصائيات العالمية على شرط ان تتركز على دراية وحكمة واتزان ٠

هذا وانه اصبح من المتحتم اليوم توسيع العمل البناء فى هذا الميدان وتعميمه على أساس الانسجام والتعاون بين كل المصالح التى يهمها الامر وذلك تحت اشراف الهيكل الصحى وبالخصوص الهيكل الفنى الطبى على اختلاف الاختصاصات التى تجابه المشكل اولا وبالذات ففيما يتعلق بالاطباء المختصين فى الامراض العصبية والنفسية والسلك الصحى الذى يتبعهم فانه ينبغى ان يبادروا باجراءات شاملة فى التنظيم العائلى وتعطيل الحمل لكل امراة اصيبت باضطراب عصبى محسوس فدخلت مستشفى الرازى للامراض العقلية اوترددت على عيادات هذا المستشفى ولربما من الفائدة ان ترتكز مصلحة تنظيم عائلى في المستوى الطبى تتعلق بالاولوية بالمرضى وحتى بالاعوان العاملين فى نطاق مصالح هذه المؤسسة لتؤدى رسالتها اليومية فى هذا الميدان بصفة تطبيقية ملموسة كما انه ينبغى تعميم مثل هذه المراكز فى كل المستشفيات والمؤسسات الصحية بصفة اعم كى يتواصل العمل فى هذا الصدد بكل عزم وثبات وفى نفس الوقت بكل دارية فنية واحتراز مرتكزا اكثر فاكثر على العوامل النفسانية الهامة التى تدعونا تارة الى الاقدام والصرامة والانجاز السريع وتارة اخرى الى شىء من الحذر والتمعن والاعتدال

كلمات مهموسة

شعر محسن بنحميدة

تشكو وتشكو وتشكو ثم مـاذا
ضع قصيدك
مع قصيدى
وكذا يبدو السؤال
وكذا لا بد أن نمحو أو حال الرجال
فقصيدى
لن يموت
وقصيدك
لن يموت
والذى يبقى
من الاوحال
والاجلاف والأرجاس
والوسواس والخناس
خيط عنكبوت

فكم من مرة لأبسط الأمور
ينبت لى جناح
أطير فى الأجواء
كأننى عصفور
وكم من مرة يجتاحنى الغضب
أفور وأموج
من غير ما سبب
حمدا لك يا رب
وقد أبقيت لى
على مدى الحياة
براءة الأطفال

م ٠ ب

حديث بوذا

بقلم : حمادى العبيدى

بوذا ــ قال بوذا لتلاميذه : إنى سأحدثكم اليوم عن موضوع لم اتحدث فيه للناس من قبل ٠

التلاميذ ــ فما عسى أن يكون هذا الموضوع ؟ قالوا ذلك وقد اشرأبت أعناقهم ، وشخصت أبصارهم ، يتشوقون الى ما سيظهر به عليهم معلمهم الاكبر ٠

بوذا ــ لا داعى للجزع ، ولا الى الالحاح فى التطلع ، انما هو حديث كهذه الاحاديث التى ألقيها فيكم بين حين لآخر ٠ شئت اليوم أن أحدثكم عن البطولة ، وأبين لكم رأيى فى هذه الظاهرة الانسانية التى ما تزال خفية عن عقولنا ، تصنع بنا الاعاجيب ، وتغير من أحوالنا ما تغير ، وتوجه مسار الأحداث والحوادث ، ولكننا لا نجد لها كنها ، ولا نفقه لها تفسيرا ٠ فمن أين تنشأ البطولة ؟ وما هى الظروف التى تتجمع فتكون البطل ؟ ٠ بل ما هى العوامل والاحداث التى تخلق بطلا معينا ، وبطولة معينة ؟ ثم لماذا يظهر البطل فى مكان دون آخر ؟ وفى زمن محدد لا يتقدم عنه ولا يتأخر ؟ وما سر هذا التنوع فى البطولات من بطولة دينية ، الى بطولة سياسية ، الى بطولة فى الفلسفة ، أو فى العلم ؟ ٠ أو فى الادب ؟ ٠

لا شك أن كثيرا من الناس قبلنا قد فكروا فى هذا الامر ، ولا ريب كذلك أن سيأتى آخرون فيفكروا فيه أيضا ، وما أظن الناس سينتهون الى رأى ويستقرون عند قرار ٠ فالبطولة ظاهرة من أغرب الظواهر البشرية ، متنوعة ، مختلفة باختلاف الابطال الذين تتقمصهم أو يتقمصونها، ومختلفة كذلك باختلاف البيئات ، والامكنة والعصور ، والامزجة الاجتماعية والحضارية ٠

أحد التلاميذ ــ بيد أن أهم القضايا فى هذا الشأن هى : هل أن البطولة تصنع الاحداث ، أم أن الاحداث هى التى تصنع البطولة ؟

بوذا ـ إن هذه أيضا قضية كبرى من قضايا البطولة ، **طال تفكيري فيها** . فنحن نرى أن الناس يختلفون كثيرا ، فريق يـرى أن الاحـداث هي التي تصنـع البطل ، وآخرون يجنحون الى أن البطل هو الذى يصنع الاحداث ، ولكن يبدو لى أن كلا من الفريقين كان على حظ من الصـواب ، وكان على حظ من الخطـا أيضـا ؟

أنندا ـ ولكننا نرى أن الذين يفسرون البطولة على أنها مخاض أحداث ، وأن البطل عصارة تلك الاحداث هم الذين أقتربوا من الحق فى هذه القضية .

بوذا ـ ولكنكم لا تنكرون أيضا أن البطل يصنع الاحداث ، وينشىء التاريخ؟

التلاميذ ـ نعم . نحن نؤمن بهذا أيضا .

بوذا ـ وإن تلك الاحداث التى يصنعها البطل تنضج وتبعث الى الوجود بأبطال آخرين ، وتلك هى سنة الجدل فى التاريخ .

أنندا ـ اذن فان الفريقين جميعا على حق ، وأن القضية قضية تفاعل ينصهر بميلاد البطل .

بوذا ـ إن الفريقين على حق إذا آمن كل منهما بما يؤمن به الآخر ، أما إن ظل كلاهما مستمسكا بنصف الحقيقة ، فان ذلك هو الخطأ ، وإن مذهبى فى هذه القضية أن أجمع بين الرأيين .

التلاميذ ـ وبماذا ـ أيها المعلم ـ تفسر التنوع فى البطولة ؟ فقد أخبرتنا أن البطولات ضروب .

بوذا ـ هناك بطولات عديدة أخرى ، لم أذكرها لكم : هناك بطولة للحـرب ، وبطولة للسلم ، وهناك بطولة للفضيلة ، بل هناك بطولات للرذائل أيضا ، بطولات فى القسوة ، والعنف ، والاحتيال ، والخداع . هناك بطولات للخير ، وهناك بطولات للشر والدمار ، ولكننا درجنا على أحتقار هـذه الانـواع من البطولات ، وحجبنا مظاهر العبقرية فيها ، وهى نوع من البطولة على كل حال ما دامت الرذيلة فضيلة ناقصة كما يقول المتفلسفون . فلنقل إنها بطولات كان يمكن أن تكون نبيلة ، وكريمة ، ولكنها شوهت ، وإن أرى أن تشويهها لا يفقدها صفة العبقرية ، ولا معنى النبوغ .

أنندا ـ إنك لم تجبنا بعد عما طلبنا اليك . فنحن نعرف أن البطولة بطولات ، ونحن لم نسألك أن توضح لنا سر الانحراف بالبطل من الاستقامة الى الزيف ، ولكننا نريد أن نقف على سر هذا التنوع الغريب فى البطولة الحق ؟

بوذا ـ إن الذى يحدد البطولة هى حاجة الناس الى بطل معين • فأحيانا يحتاج الناس الى بطل دينى فيظهر نبىء يقوم ما انحرفوا فيه ، ويوضح ما ألتبس ، وأحيانا يحتاجون الى بطل سياسى أو عسكرى فيظهر لهم هذا البطل • وأحيانا يحتاجون الى بطولة فكرية حين تستقر بهم الاوضاع ، ويلتفتون الى الترف العقلى ، فيظهر لهم من ذلك ما يريدون •

الاتباع ـ إن تفسيرك للبطولة على هذا النحو أمر غريب ، فليس أسهل على الناس من أن يرغبوا فى ظهور بطل معين حتى يظهر لهم هذا البطل وقد صنع لهم كما يشاؤون •

بوذا ـ إنكم لم تفهموا ما أعنيه من قولى « حاجة الناس الى بطل معين » • فان الحاجة عند الناس لا تأتى عفوا ، وإنما الحاجة هى أزمة حضارية • فالبطولة دوما مخاض لأزمة حضارية ، وما دامت الازمات فى الحضارة تختلف باختلاف الطابع الحضارى الذى تنشأ فيه ، فان البطل يكون من نتاج تلك الحضارة التى تأزمت • ومن هنا نرى الناس فى هذه المرحلة الدقيقة من تأزم الاوضاع الحضارية يطلبون ما يسمونه ـ المخلص ـ أو البطل ، ويتشوفون اليه ، ويتهيؤون لمناصرته ، وقد يفجؤون هذا المخلص بظهوره فيسير مع أهوائهم ، ويحقق أحلامهم ، وقد يعاكس رغباتهم فيدفع الحضارة دفعا آخر ، ويتجه بالناس اتجاها لم يألفوه ، وتلك هى البطولة • ومن طبيعتها أن تحرك الاحداث ، وتبعث بها زوابع ، فتستيقظ الحياة بعد أن ران عليها السكوت والخفوت والخمول • فان لم تفعل ذلك فليست من البطولة الحق ، وليس أبطالها إلا مزيفين •

التلاميذ ـ وهل هناك مقياس نتبين به البطولة الصادقة ، من البطولة الكاذبة ؟• إن البطولة الكاذبة تدعى لنفسها ما تدعيه البطولة الصادقة ، فمن أين لنا أن نهتدى الى الحقيقة ، وقد يسير الناس وراء هؤلاء الابطال المزيفين ، يهتفون لهم ، ويلتفون حولهم ، ويتبعونهم على عمى ، ولا يكتشفون زيفهم وخداعهم الابعد أن يكونوا قد دمروا مادمروا، وعصفوا بما شاء لهم الله أن يعصفوا • وإن الناس بحاجة الى هدايتك ـ يا سيدنا ـ تنير لهم الطريق ، وتجنبهم الخديعة والمكر •

بوذا ـ إنى لا أملك هذا المقياس الذى تبحثون عنه ، ذلك أن البطل الزائف ذكى وعبقرى فى زيفه ، سوف لن يترك لأحد أن يكتشف أمره حتى تشتد سواعده ، ويقوى متنه ثم يكتشف عن أنيابه الحادة المخيفة ، ويومئذ لن يكون الخلاص منه سهلا ، ويومئذ يصبح على الناس كابوسا يصيب حياتهم بالتمزق ، فالقلق ، فاليأس . ومع ذلك فلا مناص من أن يتعلم الناس المقياس الصحيح لمعرفة هذا النوع من البطولة ، وهذا النوع من الابطال .

التلاميذ ـ أمتدت أعناقهم فى تطلع ملحاح وهتفوا بصوت واحد ، ما هو ، ما هو المقياس الصحيح يا سيدنا ؟؟؟

بوذا ـ ليس هذا المقياس عندى ، وإنما هو عندكم .

التلاميذ ـ عندنا نحن ! كيف ؟

بوذا ـ نعم : عندكم أنتم ، إنه التجربة . لا مفر لكل أمة من أن تجرب البطولات الصادقة ، والكاذبة على السواء ، ويومئذ تكتسب قدرة التمييز بين بطولة صادقة فتمد لها فى الحياة ، وأخرى كاذبة فتسد أمامها الطريق من أول لحظة .

أنندا ـ كيف تستطيع أمة جاهلة ، جائعة أن تميز بين الابطال الصادقين ، والمزيفين ؟

بوذا ـ الواقع أن هؤلاء الابطال المزيفين هم الذين يعلمون الامم ، ويعطونها أنفع التجارب فى حياتها ، أما ترى أن الشعوب المتماسكة القوية قد تعلمت من أخطائها وانخداعها أكثر مما تعلمت من لحظات مجدها السابق ؟ لا مناص ، لا مناص من التجربة . وان ما يلحق بالامة من هزيمة ، أو كارثة بسبب أبطال مزيفين ، إن هو إلا ثمن تلك التجربة الغالية .

أنندا ـ ومتى نطمئن الى الامة ، ونقول إنها اليوم أصبحت على حظ عظيم من التجربة ؟

بوذا ـ يوم تحرص على سيادة القيم العليا فيها فتجعلها فوق كل شىء ، وتختار قادتها على أساس من تلك القيم ، أما اذا ظلت تجسم قيمها ومباديها العليا فى أشخاص ترفعهم فوق ما آمنت به من مبادئ ، فاطمئنوا الى أنها ما تزال بحاجة الى التجربة .

التلاميذ ـ نعم والله . هذا ما كنا نبحث عنه فعرفناه ، وطوبى لامة نضجت فيها الحياة ، فخفت الابطال ، ولمعت القيم .

ح . ع .

دميتي .. والنار .. والعنبر .!

شعر : أبو وجدان الصادق شرف

- 1 -

الدمية التى تحبل بها مصانع البلاستيك
لن تكون أروع من دمية تصنعها أصابع
طفلة من خرق بالية وأعواد يابسة ..
لأنى فى ذلك البلى واليبس أتحسس
عاطفة إنسان يلعب بالبراءة .. ولا
أتحسس فى البلاستيك الا عاطفة
إنسان لا يلعب إلا بالنار والحديد !

بنت عشر .. وأنا طفل تحديت النبوغ ..
بنت عشر .. وجمال شمسه فوق البزوغ !
قد عشقت الشمس حتى كاد دينى أن يزوغ !
سئمت نفسى من الطهر..وهمت بالولوغ..
كيف قالوا : إنه طفل وديع لا يروغ ..؟
لم نزل طفلين لكن ... لعن الله البلوغ !
أثمر الصدر .. ولكن لم تمل بعد الغصون !
ما الذى تخفين عنى تحت أوراق النلون ؟
لا تخافى..واسمعى..كيف يقول الآخرون..
إنه ما زال طفلا .. يبتغى الصدر الحنون !
فتعرى والبسينى .. كيفما شئت أكون ..
فاذا كنت لك العينين .. كونى لى الجفون !
وتعرت .. بعدما مزقت طربوشا وجبه ..
فاذا الوصل عذاب .. واذا الواقع خيبه .!
وابنة العشر خراق .. فوق أعواد وعلبه !
دمية كانت .. وقد كنت أنا غرا .. ولعبه ..
كنت طفلا .. أحسب الكأس حراما أن أكبه .
فأكب الحب كأسى .. لعن الله المحبه .!!

قد لعنت الحب طيشا ·· وأنا لم أدر بعد ··
ألعن الحب ·· ولا أعلم أن الهزل جد !
قبل أن يبدو لعينى جمال لا يحد ··
فاذا نفسى هواء ·· كلها جزر ومد !
ونداء ··· هذه الشقراء أمر لا يرد ···
واستبدت ··· « انما العاجز من لا يستبد » !
فارتمى قلبى ، وعقلى ، عبر أمواج الصدام ··
ودخلت المرقص المجنون من باب الظلام ··
أنا ما سلمت ، لكن ·· ثغرها رد السلام !
خمرة شقرا ··· وسكير أنا من ألف عام ··
سمرتنى ·· أين أمشى ؟ للورا أم للامام ؟
وكأنى طار بى ألف جناح من غرام !

- 2 -

قبضت بيدى على جذوة النار غير مرتعش
ولا هياب فأحسست بالعطش يمتد
من أصابعى إلى حلقى ولسانى ··· إنه
شباب النار : النار ·· ولولاها
لما أحسست بما فى شرخى من بعولة
الدفء ·· وبما فى النار من لذة
الحياة ·· ولولاها لما كان للعنبر عبير !

بنت عشرين ·· وهذى موسم قبل أوانى ··
أفقدتنى كل حسى ·· جردتنى من لسانى··
لكأنى صرت من غيبوبتى فى اللامكان !
ثم ضاعت أبعد الأبعاد فى بعض ثوان
عندها انهارت حدود الله من ذهنى الجبان
وتعانقنا ·· فمن قال ·· بأنا موسمان !؟
وتعانقنا ·· وباتت كيفما شئت تشاء ···
صيرت حريتى وحشا به ضاق الفضاء !
وتحديت بها التقليد ·· فانهارت القضاء ···
عندما قالت : لك الفتك ! وللأنثى الحياء !

أكبرت فتكي ·· فهل تبقى لغيري كبرياء !؟
لم تزل تعشق فتكي ··· لكن العشق هواء !
·· وهباء ·· عندما أبصرت سمراء خلوب ··
فوق خديها بقايا من جمال للغروب ··
فاجأتني ·· وأنا في حضن شقرائي اللعوب !
من رآني معها··· يقسم : أني لن أتوب !
بنت عشرين·· دعوني·كفرها يمحو الذنوب·
عمرها نار ·· وعمري كيف فيها لا يذوب·؟!
مذ عرفت النار··لم أعرف سواها أحرقتني··
ملأت لي كأس نهديها ·· ولكن شربتني ··
قد تعرت ·· وعلى أفخاذها قد صلبتني ···
قد أذابتني نعيما ·· ليتها ما ذوبتني !
ركضت خلفي عشرين ، وما إن سبقتني !
سرقت مني شبابي ، وأخيرا سرقتني !
سرقتني ·· إذ رأتني مع سمراء تبختر ···
غادة سمراء في درب الثلاثين ·· وأكثر !
عنبر··لكن··معي الشقراء لي أحلى ، وأصغر !
شعرها نار فلا تحرقني ·· إلا لأكفر !
هتف العنبر بي : فلتخضع النار لعنبر !
كيف !؟ من حطم قانون الاله !؟ الله أكبر !
أحرق العنبر ناري ·! وخلت أعتاب داري !
زارت السمراء بيتي ·· كم لها يحلو مزاري !؟
هذه أخرى·· ولكن·· صمتها يكشف عاري!
ولقد حدثت نفسي ·· وشبابي ·· بالفرار··
وتحاورنا طويلا ·· وعلا صمت الحوار ··
سمعتنا·· أسرتنا··هل سأبقى في إساري؟؟

— 3 —

لئن يحرق العنبر ناري فذلك هو العطش الذي لا يرتوي إلا بالعطش الدائم ·· وبعد الارتواء تورق كومة فحمي بثلاثين ربيع رائع كالنضج ·· صيفه خصب ناضج

كالنـــار ٠٠ خـريفـــه حصـــاد مـوحـش
كـالمـتـــاه ٠٠ شـتـــاؤه دفء بـــارد
كاليـــأس ٠٠ وفـى البـرد أنام بعيـنٍ
وأفتـح عينـا عـلى كـوة الغـد الأخـرس

هذه السمراء مـدت زندهـا لى كوسـاده ٠٠
أتراها تفهم الحـب ٠٠ ومـا إثـم العبـاده !؟
أتـــرانـى معهـا أتقـــن أدوار السعـاده !؟
بعد ما قد أحرقت عمرى ٠٠ وأذرت لى رماده !
وغـزتنى بثـلاثيـن خـريـف للابـاده ٠٠٠
عنبر٠٠ لكن٠٠ وهل يحجب بالعطر سواده ؟!
الثـلاثـون عـلى أعتـاب عمـرى قـابعـه ٠٠
أفقدتنى دفء أمى ٠٠٠ وأنا فى التـاسعه ٠٠
ثم فى العشرين صاغت من أبى لى فاجعـه ٠٠
ها أنـا أطعمتهـا ركنـى حيـاتى اليـانعه ٠٠
ليـت لى مليون عمر ٠٠ وهى دوما جائعـه ٠٠
علمنـى أجمـع ديـوان النجـوم الضـائعـه !
الثـلاثون ٠٠ أنـا أحـرقتهـا فى أربعـه ٠٠
بيت شعر ٠٠ وهو فى حرب الليالى القعـه !
صوت وجدان(1) ٠٠ولا أقدس من أن أسمعه !
طيف أنثى ٠٠ فرشت بالورد دربى أجمعـه !
وأنا الانسان ٠٠ كى أسمو بهذى القـوقعه !
من بنوا من أجلها الدير ٠٠ وشادوا الصومعه !
لكن الانسان قد بـاع الى الاطمـاع دينـه ٠٠
تاه فى تيه الليالى ٠٠ أفقد الدنيا السكينه ٠٠
يحـرث الظلـم ربـاه بمسـاميـر لعينـه ٠٠
غير أن الأمـل المسكيـن قـد يسبـق حينـه
يحصد الزرع ومن حبـه يهدينـا عجينـه ٠٠
فالثـلاثـون صـراع مـع أوحـال المـدينـه !

٠١ ص٠ س٠
منزل تميم 15 ــ 9 ــ 1968

(1) وجدان : أول طفل رزق به الشاعر ٠

القفـــــــزة

قصة بقلم : نعيمة الصيد

الركب تتلامس قليلا ثم تتباعد ٠٠ جسده تحت اللحاف قد بدأ يعـرق ٠٠ يده ما زالت مصلوبة على صدره ٠٠ عارية ٠٠

متى سيفتح لها ذراعيه لتخلف وراءها الجحيم ٠٠؟

تنبعث من المدفأة نوبات دفء تشعلها بردا أكثر ٠٠ فتلتصق ٠٠

نفيره لم يبدأ بعد ٠٠

ذراعاها كانتا عاريتين حتى الصدر ٠٠ وثيابها بقطعها الصغيرة مبعثرة على الأرض ٠٠

فالبارحة ليلا هيأت الثياب ٠٠ والعطر ٠٠ الحذاء ٠٠ وكل شيء ٠٠

والبارحة ليلا كانت حقيقية مع الآخر كما لم تكن منذ ولادتها ٠٠ والآن هذا الخوف يتيح لها ان تهب نفسها المتناقضة ٠٠ وبالتالي التخبط فى الثرثرة أو الصمت ٠٠

والآخر يفصل بينهما ٠٠ يتركك وسط الطريق معرضا نفسه على الـدوام للاستشهاد ٠٠

الزمن وقد اصابه الجنون تأطر فى هذا الصمت العظيم الذى يلفهما ٠٠

البارحة كانت هـى ٠٠

وهذا الصباح مازال كالوردة الصغيرة ملتذا بالانتباهات الجديدة القادمة اليه من مناخ متوهج ٠٠

يتحرك قليلا ٠٠ يأخذ سيجارة ويشعلها ٠٠ يبدو وجهه سميكا بهذه السحنة الراجفة من القرب والبعد ٠٠

كل حصارات الخارج كانت تزيدهما وحدة ٠٠ استرخت مسامها ٠٠ هل كانت متماسكة الى هذا الحد ٠٠؟ تجلى وجهاهما بانبثاق بطىء ٠٠

هو والآخر ٠٠ الغابة والنهر

الآخر وهو ٠٠ المجتمع والعالم

تطلع اليها بشغف فاشتعلت فى أعماقه رغبة جامحة ظلت ترغو كايقاع سريع حارق ٠٠ احتضنها وهمس :

ـ أعشقك ..

همست بوجع مر ..

ـ أحبك .. أحبك .. أحبك

كلمات .. كلمات ..

هذا اللحم العارى .. والبشرة اللامعة .. والجلد الحمرى .. لماذا تسير دائماً فى اتجاه معاكس للنهر .. ؟

فكرها يستيقظ على الفضول .. فضول يفكران بتصديقه لثوان معدودات حتى يحل التكذيب به ثانية .. عيونهما مرتخية ينزف منهـا نهر عميـق من الصمت ..

من أين للعشاق هذا القدر الهائل من الصمت .. ؟

منذ طفولتها لم تعرف هذا الكرم من العواطف .. وهى المرأة المعرضة على الدوام الى الاشتهاء ..

ما كان يهمها الا قليلا مداهنات الاخرين حولها .. الا انها كـانت مؤمنـة بنفسها فحسب .. كانت منبثقة على الدوام ينبوعا يبلل شفاه الجنود داخـل معسكرات الاعتقال ..

تمتمت .. :

ـ أريد تذكر كل شىء .. وأنت .. ؟

ـ أريد ترنيم اسمك حرفا حرفا .. أريد أن أحبك فقط .. حبك وطنى ..

تنظر اليه .. العينان مجروحتان ..

كان الواحد منهما يسيطر على الآخر الا ان نفسيهما كانتا تجدفان فى نهر شرس ..

ويتعانقان ..

ما زال فى وسعهما التبشير بنشيد جديد ولكن الامتيازات الاخـرى ايـن يضعانها .. ؟

الآخر .. وزوجتـه ..

إنه إلتباس جديد لا يمت بعلاقتهما بل بوضعية العالم من حولهما ..

من يقدر على التلاشى داخل المخيلة ويكشف كل هذا الذى يحدث .. ؟

من يقدر على تمييز الاجساد باللمس والقبلات التى تتلاحق كالشظايا داخل الابدان .. ؟

الهلاك يتعاظم من حولهما .. والصباح سيغادرهما بعد قليل .. وهى لا تريد تفسير قانون هذه العذابات التى تطفو رغم بساطتها متناقضة ..

نهر الشهوة تلقاءهما يضطرب فى عنف والقفزة داخله تتيح لجسديهما أن يكونا فيه عذوبة ..

لو أنا طيرت من أرضي حمامة

شعر : عبد القادر بن شرودة

... وأصحب عصفورة من بلادى ،
تغنى معى فى « البرازيل » ،
مثلى وجدت كثيرا من الشعراء ،
التقيت بـ « مورا » (1)
و « أبغار » (2) ...
غنت عصافيرهم معنا ، واتحدنا .

●

وأحمل شمامة من بلادى
تفوح هناك معى ،
يتنهد « لوركا » (3)
ويقطف لى باقة من رياحين غرناطة الحالمه ،
هدية « لوركا » إلى أهله .

●

وأحمل حفنة قمح ،
وأبذرها ،، ها هناك ،
فينهض « بابلو » (4) من الرقدة الأبدية ،
سنبلة تتحسس قمح بلادى .

●

---

(1) Emilio Mora

(2) Abgar Renault

(3) F. G. Lorca

(4) Pablo Neroda

يقولون : ما بيننا ألف سد ،
لقد بالغوا ،
إننى قد وجدت لديهم قرابه ،
ويكفى لتعرف أهلك ،
أن تمتطى موجة ،
صهوة الريح ،
أو صهوة الفجر ،
أو نجمة ،
أو سحابه ،
ويكفيك أن تتأمل فى الأرض ،
حتى تراهم ،
ترى زرعهم ها هنا يتنامى ،
وسنبلهم يتكدس ،
حتى التلاحين مثل المواويل فى بلدى ،
فلا فرق ما بينها ،
لا غرابه ..

وأذكر أنى سمعت « سليمانوف » (5)
يغنى بصوت شجى ،
وقد كان يسهر مثل التقيين فى بلدى
لعله يشهد ربه فى ليلة القدر ،
وعدت من السفر ،
بما قد حملت من الزاد ،
عرجون تمر « قبلى »
وسنبلة
وزهيرة فل
وعصفورة من بلادى ..
هنا وهناك

---

(5) شاعر سوفياتى (كتاب : خمسون قصيدة سوفياتية) .

العصافير والقمح والزهر ،، كم تتشابه !
فغن كما شئت ،
أيان شئت ،
فما بيننا والشعوب البعيدة
رحلة صوت ٠٠

●

تطلع الشمس بنفس الحجم
والبحر بنفس العنف يزبد ،
وبنفس العمق ، تشكو من عصار الحزن ثكلى
وبنفس الخلجة الوحشية الصماء ،
تحتك السحابات وترعد
وبنفس الغضب النارى
نفس الكلمات
يصرخ الأحرار فى وجه الطغاة ،،
ويقولون : تخوم ،
وبحار ،
وفروق فى اللغات

بيننا ؟؟؟
والكون للانسان ،
والانسان فى كل الجهات ٠٠
لو أنا طيرت من أرضى حمامه ٠٠
لمضت تسجع فى « الوادى الكبير » (6)
أو أنا بخرت بالشمس غمامه
لمضت تهطل فى « البيرو »
بنفس القطر والنشيج المثير ٠٠

ع٠ ش٠

(6) الوادى الكبير بغرناطة وقد ورد كثيرا فى شعر « لوركا » ٠

الايدي على القلوب

قصة بقلم : على الشملي

دخل البيت واغلق الباب واستلقى على الفراش باثوابه وحذائه وأغمض عينيه ثم جلس على حافة السرير ونزع الحذاء واستسلم الى اغفاءة ثم فتح عينيه ٠٠ اعواد السقف خمسون ، الجدران باهت لونها الابيض ٠٠ حجارة السقف من النوع المفقود ٠٠ غادر الفراش وتمشى وسط الغرفة وعاد ينزع اثوابه ببطء وتراخ ٠ أخذ تفاحة كانت على الطاولة فوق كتاب وقضم منها قطعة صغيرة ثم القى بها من النافذة وتصفح الكتاب وتركه ليفتح المذياع : نواصل تقديم برامجنا على موجة ٠٠ اغلق الجهاز وقام يرتدى اثوابه ثم خرج ٠٠

جلس على حافة الميناء ، اخرج قلم رصاص ورسم على يمينه اشكالا متداخلة ، كتب تحتها حروفا : سين ٠٠ الف ٠٠ نون ٠٠ تاء ٠٠ حاء ٠٠

رفع القلم ثم عاد يكتب فوق حافة الحرف الاخير راء ٠٠ وتحت الحرف الاسفل باء ٠٠ قلقل راسه ثم فسخ حرف الباء الاخير ونهض وغادر المكان ٠

فتشوا جيوبه يبحثون عن اوراقه الشخصية ، الجيب الاول به ابيات من الشعر والثانى به ثلاثون مليما والثالث به اقراص مهدئة للاعصاب والجيب الرابع مثقوب ٠٠ فتح عينيه وفركهما ، تقلب فوق الفراش محاولا التعرف على المكان ٠٠ جاءت الممرضة لتتفقده فى الوقت الذى عينه لها الطبيب ، لم تجده ٠٠

فى البطحاء المواجهة للميناء جلس على صخرة وراسه بين يديه ٠

ـ الاول استلقى على ظهره واضعا يديه فوق صدره : غدا تشرق الشمس يا بطنى ويا سواعدى غدا تخضر الحقول ٠٠

الثانى يرقص ويقوم بحركات بهلوانية : سين وسوف والصابر ٠٠ صرف فى المضارع المجزوم ٠٠

الثالث جالس القرفصاء ويلوح بيديه فى الفضاء : فوائد الصوم ـــ وعلى الذين يطيقونه ٠٠ من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ٠

مر أمام الاول وركله برجله فتمتم دون ان يلتفت اليه : لن احلق ذقنى الا عندما ينبت شعر انفى ٠

بصق على الثانى فلم يعره اهتماما وواصل همسه : لن ابـدل الرصيـف بالفراش حتى اتوسد التراب ٠

وقف امام الثالث وهزه من شعر رأسه فلم يكترث به واستمر يتمتم : متى أصبح الفاعل منصوبا ، وجب الاعراب

تركهم وواصل سيره يجر اقدامه فالتحقوا به جميعا واصطفوا امامه :

الاول : من اين نبدأ الطريق الى الله

الثانى : الى اين سيكون اتجاهنا اذا اخذنا الطريق نحو الجنوب

الثالث : من اى جهة نسير نحو الشرق ٠

رفع راسه الى الفضاء ففعلوا مثله ، تراجع خطوات الى الوراء فاتبعوه ٠ بدأوا يسيرون فى صمت حتى صدئت اقدامهم وغشى جبهتهم ضباب كثيف ، وتآكلت ملامحهم وحدثت فى داخلهم احساسات غريبة فأحسوا بالتعب ٠٠ نبههم المسير الى اشياء كثيرة فى حين ظل هـو فـاحم العـواطف ، يـابس الاحاسيس ، جاف الشعور ، مبعثر الافكار ٠٠

الاول : اريد ان اشتكى وبى شوق الى كتابة خطاب طويل ومرثية عميقة ٠

الثانى : لى رغبة فى الصراخ المستمر عسى ان تهدأ نداءات جسمى ٠

الثالث : أحس بحنين الى شىء آخر كانه الثورة فى سبيل الامل الوديع٠٠

كان يشعر بما لا يشعرون به ويحس برغبة لا يعرفون لها طعما ولا لونا ولا يجد هو لتحقيقها سبيلا ٠٠ لماذا ربط مصيره بمصيرهم ، الى اين يقودهم ولكل منهم طريق وشهوة ٠

انفجر الالم فى قلبه واشتد به الحنين وخفقت جوانحه٠٠ فاغمض عينيه ، يريد ان يعطى الحب ويأخذ ، انه يريد ان يمنح الدفء ويعطوه الراحة والسكينة والاطمئنان ٠٠ سرحت افكاره وهو يشاهد حركة وازدحاما ويسمع ضجيجـا

متعاليا من كل بيت قديم ٠٠ كل غرباء واشقياء العالم الى جانبه ، يحيطون به وهم يرقصون ويتلاقفون ارغفة الخبز واكياسا صغيرة مملوءة ليس يعلم بماذا وسط غابة جميلة غارقة في الاضواء ومحاطة بقصور من نور تنمو فى شرفاتها ازهار واشجار بديعة رائعة ٠٠ استمر فى هذيانه وتصويره من حيث لا يشعر ، ومرافقوه الذين استحموا فى بحار من كلمات مغرية استمروا فى رقصهم حتى اصطدموا بجدار كل يفصلهم عن البحر فسقطوا الواحد فوق الآخر ٠

الاول : سقط الماضى وانهار الرصيف ٠

الثانى : اهتزت اركان الحاضر وتلاشى الامل ، حتى فى الخيال لا يدوم الامل ٠٠

الثالث : تبخرت احلام المستقبل ، حتى الضياع المريح لا يدوم ٠٠

حاولوا النهوض فعجزوا واستسلموا للارتخاء والصمت ٠٠

اتكأ على الجدار واحتضن وجهه بين يديه ٠٠ اعواد السقف ، قطعة التفاح ، الكتاب ، المذياع ، الميناء المستشفى والغرباء الباحثون عن الطريق ٠٠ الجدار امامه ، والحواجز وراءه والفراغ فوقه ، والاخرون يحيطون به ، وشيء آخر فى قلبه ٠٠

تواصل به الدوار طويلا وبدت له الكرة الارضية مستديرة فى شكل رغيف خبز وصورة جميلة مسلية ٠٠

وعندما افاق من نومه وضياعه ، احس لأول مرة بان دقات قلبه انتظمت وبان كبده لم يعد يؤلمه وبان الميناء اغرق كل المراكب التى تمزقت اشرعتها وكل الزوارق التى اضاعت المجداف ٠٠ كانت الى جانبه واقفة وفى عينيها بقايا من دموع وأثر الحزن يرسم على وجهها بقعا من الحمرة الداكنة ، مدت اليه يدها ورافقته الى حيث كان الماضى حبيبا لهما وحيث الامس مسرح امل وديع ٠٠ من هنا كان البحث عن الخبز ، ومن هنا اصبح الرغيف قضية السواعد وعاد الامل موسم حصاد ومزرعة قلوب كبيرة ٠

وعندما كان فى الطريق الى البيت معها صافحت نظراته الافق الممتد فاذا الاجسام متراصة واذا رائحة العرق تشعل الرغبة فى شق الحياة الى الخلود عبر ممرات الرجاء ، والتفت اليها وفى عينيه سمفونية اعتراف بالجميل وشكر على الرجوع ٠

ع٠ ش٠

الليل والخيام

شعر : حبيب العوادى

الليالى ساكنات فوق أشلاء الدروب ،
والرياح الشاكيات
فى البرارى لا تنام ،
وألم الكون المرير
يخنق الحلم الوليد ،
والنسور الجارحات
تشرب الدم من شرايين الأنام ،
من جلود اللاجئين ،
فى المغاور والخيام ،
والنساء العاريات
فى صراخ لا يموت ،
قد مقتن المين فى حلو الكلام ،
والكلاب ـ اليوم ـ فى ظل السلام ،
تنهش العظم وتدعو لأراجيف الوئام ٠

★ ★ ★

خيم الليل على أرض الجياع ،
واختفى النور بأرجاء الظلام ،
وتوارى الحزن فى كل مكان ،
تاركا فى قلب « هابيل » مخافات الوجود ،
واحتراقات المساجد

والمنازل ،
والحقـول ،
فى بيوت اليتم والبؤس وفى كل الشوارع
وصمة الذل وأبصار المهانه ،
فى زهور الحقل وفى صمت القبور
يشتكى المجد فتنهار الدموع ،
ويغور الحزن فى قلب الحياة ،
ونظل الدهر فى طيف المنايا
نرقب الطفل وفى الصدر زئير ...

ح. ع.

طالب بكلية الآداب

كيس الكلمات

قصة بقلم : مبروك المناعي

الى الذى « نثر » كلماته ولم يجمعها ، أستاذى : البشير المجدوب

* * *

خرج فى صبح يوم من أيام الخريف يحمل كيسا من الكلمات ٠٠ تتعثر خطاه عند كل مرتفع ، وتئن مفاصله تحت ثقل الكيس ٠٠ كان طول الطريق ممسكا عن الكلام ؛ رابطا شفتيه بشدة ٠٠ كان بخيلا حتى بـ (ـصباح الخير) ٠٠

وأخيرا بلغ الحقل الذى بقى سنين فى حراثته واعداده للموسم الجديد ٠٠ كان فى كل مرة يفتح الكيس بحذر ٠٠ يدخل فيه فاه فيملؤه كلاما ، ثم يربط على الكيس ، ويبدأ فى زرع الكلمات بين شقوق الارض العذراء ٠٠ أمضى زمنا وهو يجوب الحقل يمينا وشمالا ويلقى فيه بفمه ما يأخذه من الكيـس الى ان أنهى « بذوره » ٠٠

وقف عند نهاية الحقل يتأمل عمله ٠٠ يتذكر كم من مرة عثرت سكة محراثه فى الحجارة الصلبة والجذوع القديمة ٠٠ وكم من مرة سقط على تراب الحرث نبعا وإرهاقا ، فعفر التراب وجهه ، وسد أذنيه ٠٠ وكم من مرة طارد الطيور التى اقتربت من حقله لتختطف « بذوره » ٠٠

وقف عند نهاية الحقل يتصبب جبينه عرقا ، وهو يفكـر فى امـر كلماتـه ومحصول عمله : « ترى ماذا يلد الحقل ٠٠ ؟ ماذا تنبت الارض اذا ما زرعـت كلمـات ٠٠ ؟! »

* * *

وقف على ربوة قريبة ملتقيا جهة الشمال ٠٠ ثم دعا لحقلـه بالمطـر ٠٠ ! ولأرضه بالخصوبة ٠٠! وترابه « بالزيادة فى النسل ٠٠! » ثم ولى وجهـه نحو القرية ، وعاد مترنح الخطوات تعلو وجهه ابتسامة الرضى ، وتملأ قلبـه غبطة الموسم الجديد ٠٠ عاد من حيث أتى وابتسامة خفيفة ترقص فوق شفتيه، عازما ان يقول آخر ما ترك فى فمه لأول إنسان يجده أسفل القرية ٠٠

أخذ يقترب من القرية قليلا قليلا ٠٠ كان الصبـاح قد بدأ يطـل من وراء الهضاب ، وبدأت نسماته الرطبة تدغدغ زنود القرية وهى تتثـاءب متثاقلـة كعادتها عند كل صباح ٠٠ كأن الليل الطويل لم يشبعها سباتا ٠٠ مازال سكان

القرية الكسالى يغطون فى النوم كعادتهم ·· لكن الدجاج قد استيقظ بعد ، فخرج الى المزابل يبحث عن قوت يومه من ديدان وبقايا أطعمة فاسدة ·· أما كلاب القرية فهم غائبون منذ أيام فى قرية أخرى اشتموا فيها رائحة الجنس عن كلبة العمدة « أبى المعالى ··! »

أخذ الشيخ يقترب من القرية ، لكن عينيه لم تقعا على انسان خارجها · أحس شيئا من الضيق يمزق نفسه ·· لم يشق عليه حمل الكيس كله كما شق عليه حمل هذه الكلمة ·· وفجأة خرج من أول منزل فتى قمحى اللون ، حشيشى العينين ، تبدو على محياه الغض آيات الفطنة والذكاء ·· ويملأ قلبه الصغير حب كبير للأرض والتراب ··

ـ صباح الخير ، يا « أبا كلمة ! »

ـ ....

ارتبك الفتى واحتار فى أمره حينما رأى الشيخ لا يجيبه ببنت شفة··هذا الشيخ الطيب الذى يعرف بين أهل القرية بحبه الشديد للصغار وعطفه عليهم ، ونصحه إياهم ·· نعم ، انه كان يعتبر كل أطفال القرية أبناءه ويعلمهم حميد الخصال ·· فماله اليوم لا يجيب ؟·· وأعاد الفتى قولته :

ـ صباح الخير ، يا « أبا كلمة ! »

عندها فتح الشيخ العائد فمه قليلا فخرجت منه هذه الكلمة :

ـ « الحقل ··! الحقل ··! »

ثم أطبق شفتيه ، وأشار بأصبعه جهة الشمال فعرف الطفل الحقل الذى قصده شيخه ومؤدبه ، وتذكر جملته القديمة التى كان يقولها له ولأمثاله فى الكتاب ، والتى لم يفقهوا يوما معناها ·· تذكر قول مؤدبه :

« إنى بذرت فيكم يا أبنائى كلاما كثيرا ·· أكياسا وأكياسا من الكلمات ·· ولكنى لم أظفر منكم ولو بثمن كلمة واحدة ··! وها انى أنوى أن « أنثرها » فى تراب الحقول ، وأترقب قدوم الصيف ــ موسم حصاد الكلمات ــ على أجنى مما تنبت الارض ! ان الايام علمتنى ان التراب أكثر عرفانا من البشر ·· ! »

مرت بذهن الفتى كل هذه الكلمات ·· وهو صامت واجم فى مكانه ينظر الى شيخه الذى دخل كوخه البسيط بعد ان أطبق شفتيه الحالمتين بربيع الارض وعرس السنابل ·

* * *

ومرت الايام والاشهر ٠٠ وجاء الصيف ٠٠ جاء موسم حصاد الكلمات ٠٠ جاء الصيف ، فأخذ الفتى وشيخه منجلين وكيسا وسارا نحو الحقل ٠٠ كانا يسيران بخطى حثيثة ، وفى ذهن كل منهما تتعاقب الفصول مسرعة ٠٠

ولما وصلا الى الحقل ، وجداه أجرد ، خاليا الا من سنبلات قليلة تتخلل هشيما كثيرا ٠٠ واندفع الفتى والشيخ يحصدان هذه السنابل فكانت كل سنبلة ترسل اثر سقوطها صوتا خافتا لا يسمعه الا الفتى ، لان شيخه المسن أصبح مع مر السنين لا يسمع من الاصوات الا ما كان مرتفعا ٠٠

هوى المنجل على الاولى فصاحت : « خير ٠٠! » وعلى الثانية فقالت : « حق ٠٠! » وعلى الثالثة فقالت « جمال ٠٠! » والرابعة « حب ٠٠! » والخامسة « حرية ٠٠! » وكان الفتى يسأل شيخه فى كل مرة :

ـ « أسمعت ما قالت ٠٠ يا أبا كلمة ٠٠؟ » فيجيب الشيخ بحركة نفى ٠٠ فيقول له الفتى : « لقد قالت : كذا ٠٠ وكذا ٠٠ وكذا ٠٠! »

واستمرا يقطعان ٠٠ الى ان اعترضت منجل الشيخ سنبلة سميكة الجذع ، فأعمل فيها منجله ، لكن لم يستطع قطعها ، فأشار الى الفتى أن يعينه ففعل ٠٠ واستمر الاثنان يحاولان ويحاولان الى ان جرحت السنبلة فسال منها شىء يشبه الدم احمرارا ، وصاحت مدوية : « ثورة ٠٠! ثورة ٠٠! إننى الثورة ٠٠! إننى الصعبة ٠٠! » فهرب الشيخ مضطرب الاعضاء ، وكأن قد أصابه مس من الجنون ٠٠ وظل الفتى ماسكا جذع السنبلة ومنجله وهو يصيح : « الى يا شيخى الى ٠٠! لا تخف ٠٠! ها قد قاربنا ان نقطعها ونأخذها الى البيدر ٠٠! » وظل الفتى يصيح ويصارعها ، وشيخه هارب ، الى ان خانته قواه فسقط الى جانب السنبلة العنيدة مغشيا عليه ٠٠!

* * *

ثم رجع الشيخ بعد الظهيرة فما وجد فتى ، ولا كيسا ولا مناجل ولا سنابل لكنه وجد آثار اقدام وسواعد ، وقطرات متفرقة من دم ٠٠ ووجد الى جانب هذا ورقة كتب عليها بأحرف غليظة : « معذرة يا شيخى العزيز ٠٠! كان عليك الا تهرب من الحقل الذى « نثرت » فيه « بذورك » والا تتركنى فيه وحدى أصارع سنابله الجامحة ٠٠ إن أمر حراثته وبذره كان سهلا عليك وحدك ٠٠ لكن حصاده ـ يا شيخى العزيز ـ صعب علينا ونحن اثنان ٠٠! »

م٠ م٠

النهاية

شعر : حميدة الصولي

« لم أعد أهواك » هذا كل شيء
دمرتني الآه أزمانا ٠٠ وهذي أظلعي
تهرب مني
تصطلي ٠٠ تسجن في
جربي الكي ٠٠ لعل الداء يمضي كلما
هاجمه الكي
كل ذكرى ٠٠
انبتت اكوام نار في ضلوعي
وسرت داء عضالا في شراييني ٠٠
وفي نبض عروقي ٠٠
وبقلبي الاجنبي
خيم الثلج عليها ٠٠ لم أعد أسمع للآه
دوى زفراتي ٠٠
ابدا تحفر في نفسي جرحا ٠٠
وعلامات تحد بربري
نرفزاتي ٠٠
تتولى شج رأسي كلما تحنو علي

* * *

نجمة الصبح وداعا ابديا
واعترافاتي ٠٠
اضيفيها اذا شئت الي
فأنا النسيان لا ترقد جفناه ٠٠
ولا يعرف شيئا أزليا
فاحذري أن تقفي بين جراحي
فمحيط الارض تجتاز أوجاعي جريا

والمسافات تراءت لعيوني ٠٠
مثلما ينبت من بحر سماء
فاغربي عن قلبي الداعي علي

* * *

لم أعد أهواك ٠٠ هذا كل احساسي ٠٠
ولكن ٠٠٠٠٠
سافري أنت ٠٠ فقد أصبحت مشلولا ٠٠
أعد الزمن الواقف في يوم معين
وأعد الانفس الثكلى ٠٠ أراك ٠٠
أتسلى ثم أسكن
هكذا ألقيت بالكأس ٠٠
فكان الوقع من نفسي احقادا
ضعيفات ٠٠
وألسن
فضعي كل همومي ٠٠ وارحلي أنت علي

* * *

زمني الضارب في لفح لهيبي
آهة ٠٠ تنهيدة ٠٠ ذكرى اغتيال ٠٠
جيف عبر دروبي
زمني الساهر في يوم مريض يتكرر
فاغربي أيتها الشمس عن الروح ٠٠
أفيقي يا حبيبات الغروب
واتركيني أتحرر
ربما يحملني اليأس لآلاف القلوب

ح٠ ص٠

هى والشمس والمطر

قصة بقلم : ساسى حمام

السماء صافية ، الشمس كرة حمراء ، الاسفلت تحت قدمى يحترق ، الجدران بجانبى تلتهب ، السائرون أمامى ، ورائى ، بجانبى يلهثون ، يمسحون العرق المتصبب على جباههم ، الشارع ألوان متنافرة مختلطة متحركة ، كل واحد يسير فى اتجاهه الخاص ، ينظر الى الشارع بمنظاره الخاص ، يكون العالم الذى يعيش فيه كما يريد، يتفاعل معه كما يحب،ويرفضه،يعيد تكوينه من جديد ، المقاهى عشش فيها الذباب ، استراحت الكراسى فاستلقت بتراخ هنا وهناك ، الشارع يضيق ليتسع ، ظلى يقفز أمامى ، يطول ، يقصر ، ملتصقا بالارض ، قائما على الجدران ، خطواتى تدق على الاسفلت دقات رتيبة ، العرق ينزمن جبينى ، ينزل اودية على عينى ، يحجب عنى الرؤيا ، ملابسى تلتصق بى ، مسافة طويلة تفصلنى عنها ، عن الشاطىء ، عن الرطوبة ، عن الرمال ، عن البحر ، يجب على ان أبلغ نهاية الشارع لاخذ الرتل الذى يوصلنى الى هناك ، سجائرى احترقت ، اصبحت اصابعى صفراء شديدة الاصفرار ، مسافة طويلة وعرق غزير يفصلاننى عنها ، كلما اختصرت المسافة ابتعدت عنها ، المدينة فارغة ، الشواطىء تملأ حياة الناس ضجيجا وصخبا ، عرفتها عندما كانت تسكن معى فى هذه المدينة الكبيرة ، ساحة كبيرة تفصلنى عن المحطة ، لم أرها منذ مدة ، منذ ان انقطع المطر ، عرفتها عندما كانت الامطار تتهاطل على المدينة فتغسل كل شىء ٠ قلت لها يوما :

— هل تحبين المطر ؟

— لا ٠٠٠

— لماذا ؟ أنا أحب المطر ٠ المطر يجدد فينا الحياة باستمرار ، المطر يغسل أدمغتنا مما علق بها من أدران ٠

— لا أحب الامطار لانها تجعل المدينة قاتمة

— أحب المطر لانه يقربنى منك ٠

هى تترقبنى . اترقبها لنذهب تحت مظلة واحدة ، دعوتها لزيارتى أكثر من مرة وبعد ذلك عرفت طريق المنزل عندما انقطت عن ترقبها . فى يوم ممطر طرقت الباب . لم تحمل مظلتها فرأت ان تقضى بعض الوقت بجانبى الى ان ينقطع المطر ، نزعت معطفها المبتل وجلست على حافة السرير ، لا يوجد فى بيتى كراس ، بيت عار كل ما فيه سرير وطاولة صغيرة وضعت عليها بعض الاوراق والكتب ، جثم علينا الصمت ، عيوننا هى التى تتحدث ، حمرة وجهها اضفت عليها مسحة من الجمال ، خجلها قربنى اليها ، مسكتها من يدها ، لم تحاول جذبها ، نزعت عن رأسها فولارها فسقط شعرها الطويل على كتفيها عانقت بعض خصلاته الذهبية صدرها الناهد .

ـ لو ربطت يديك بهذا الفولار فهل تستطيع حل رباطهما ؟

ـ جربى ..

مددت يدى فوثقتها بفولارها الملون .

ـ على أى شىء تراهنين ؟

ـ أنت ماذا تريد ؟ اطلب ما تشاء .

ـ قبلة ؟

بقيت مطرقة قليلا ثم شدت الوثاق جيدا ، فككت الوثاق فجذبتها الى وطبعت على فمها قبلة ، دماء سخنة جرت فى عروقى ، المطر ينهمر فتجرى الاودية على حافتى الطريق وتنقطع السابلة فتصبح الانهج والشوارع بلقعا ، خالية ، الا من بعض السيارات المسرعة ونحن جسم واحد على السرير الجاثم فى هذا الركن من البيت .

انقطعت الامطار فافترقنا هى ذهبت الى الشاطىء مع عائلتها وبقيت وحيدا فى هذه المدينة الخالية اجتر تلك الايام وأخيرا عرفت قدماى هذا الشارع الذى يوصلنى اليها ، قطعت مسافة طويلة تحت هذه الكرة الحمراء الملتهبة ، ساحة كبيرة تفصلنى عن المحطة . الضوء الاحمر ، قف . للشرطى الكلمة الاخيرة ، الضوء الاخضر ، تحركت الجموع نحو المحطة ، أقف امام شباك التذاكر . أترقب دورى . انتظر ذهاب هذا الجمع الغفير ، بعد أن آخذ التذكرة سأدخل هذا القفص الكبير اكره مثل هذه الاقفاص التى تجعلك تدور فى

حلقة مفرغة ، تنظر الى العالم من خلال قضبان حديدية خضراء ، أرى الناس والبنايات والعالم قد تجزأ الى مربعات متساوية تعافها الاعين ، لم أتعود ان ارى العالم فى قفص كبير ، فى قفص صغير ، فى زنزانة ، فى بيت من خلال قضبان حديدية خضراء او صفراء او سوداء ، قضبان تفصل الرؤوس عن الاجساد ، تجزىء المبانى الى مربعات او مثلثات او مستطيلات متساوية ، فى البيت افتح النافذة على مصراعيها لارى العالم وحدة متماسكة الاجزاء ، وحدة لا يشوبها الانفصال ولا تعتريها التجزئة ، اكره الدخول الى مثل هذه الاقفاص ولو كان ذلك بارادتى ، اذهب الى المقهى الصغير لاترقب الرتل هناك ، جربت الدخول الى كل المقاهى ، عرفت كل شوارع المدينة وانهجها ، عرفت جميع زواياها ولكنى لم اجرب الدخول الى مثل هذه الاقفاص ولم أجرب العيش داخلها ، جلست وحيدا فى زاوية تظللها شجرة عجوز . تعددت تنقلات النادل من طاولتى الى المشرب وقد قالت لى حياة يوما :

ـ هل تحب ؟

ـ طبعا . احب امى كثيرا .

ـ من منا لا يحب أمه ؟ اقصد هل تحب فتاة ؟

ـ نعم أحب فتاة جميلة جدا .

ـ هل اعرفها ؟

ـ بكل تأكيد . انت الوحيدة التى تعرفينها ، هى لا تفارقنى ابدا .

ـ أين تسكن ؟

ـ فى المدينة .

ـ صفها .

ـ بيضاء ، شعرها طويل ، متوسطة القامة ، مكتنزة ، الابتسامة لا تفارق ثغرها ، تحب اللونين : الاصفر والازرق .

أطرقت عندما عرفت ان هذه هى اوصافها فعرفت أنى أحبها ، وهى الآن على الشاطىء تترقبنى ، أنا لا أذهب الى الشواطىء ، لانى لا أجيد السباحة ، اعرف انى سأغرق حالما يلامس جسمى الماء ولكن الرطوبة تغرينى والشمس المصلوبة على جسمها البض تدعونى الى الذهاب . يد تستقر على كتفى :

ـ هذه مصادفة سعيدة ! مصادفة ان تجلس فى هذا المقهى الذى تكرهه ٠

ـ سأذهب الى الشاطىء ٠

ـ ماذا ؟ هل غيرت رأيك ؟

ـ نعم سأذهب لحياة ٠

جلس أمامى ، الكراسى بدأت تتحرك فى كل الاتجاهات ، اصبح رأسى كبيرا ، كبيرا ، لم استطع حمله ، سقط على صدرى ، رجلاى انفصلتا عن جسمى، دبيب لذيذ يعرونى، يغزونى فاعرف ان الشمس قد غابت فى حمرة وهاجة وراء البنايات العالية وأفيق على صوت صديقى الضائع بين اضواء المصابيح الملونة ، بين قهقهات الشاربين ، بين فرقعة القوارير ٠

ـ هل ستجد حياتك فى البار ؟ سوف لن تجدها هنا ، لنرجع الى المدينة ٠

مزقت التذكرة ، اتكأت عليه وتوجهنا نحو البنايات العالية فلفنا الضجيج وغبنا شيئا فشيئا فى حركة لا تعرف الهدوء ٠

تونس فى مارس 1974

س٠ ح٠

مطالعات

الدفق الروحي في «السد»

بقلم محمود الدرويش

وهو لن يجد طريقه الى الله الا اذا وجد طريقه الى نفسه ٠ الانسان طريق الانسان الى الله ، والانسان طريق الانسان الى الانسان ٠ فما اغباه يفتش عن الله وعن نفسه فى غير نفسه ٠

ميخائيل نعيمه ٠

وهو كتاب الايمان بالانسان ، لأنه كتاب الفناء فى الخلق ، فى الله ٠٠٠٠

محمـود المسعدى

كـم اردنـا الـروح فيضـا
جـارفـا صخـر الســود

المسعـدى ٠

الانسان بين المادة والروح ٠ ذلك تنازع قديم قدم الانسان فى العالم ٠ وهو صراع قوى لم يهدأ ، وخصومة شديدة لم يعرف التاريخ لها فتورا ٠ مادة وروح فالاولى جاذبية واستجابة للشهوات ، واغراء باللذة ، والثانية جاذبية وايحاء بالطهر ، واشعار بالسمو والرفعة نحو الانسان كما يجب أن يكون ، ثم نحو الله٠

لقد عرف الانسان ، بل الانسانية كلها احقابا كانت فيها من امر المادة والروح بين مد وجزر ، واقدام واحجام تبعا لمعطيــات اقتصاديــة وجغرافيــة وسياسية وحضارية بوجه عام ٠ وكان التنازع يبلغ اشده كلما أوغل الانسان فى اتجاه على حساب آخر ، واسرف فى جانب دون الجانب المقابل ، وهكذا عرفت مجتمعات يغلب عليها التمسك بالدين والارتباط بالاخلاق والتعلق بالمثل

واخرى بما غلب عليها من البذخ والترف والافراط فى الثراء والتهالك على ما يرضى الغرائز ويملا البطون والجيوب ٠

وصراع انسان المسعدى فى السد يختلف عما تعورف من قصة المنازعة قديما وحديثا من ان الانسان يكون موضوع الصراع ، اذن فموقفه للاستسلام اقرب ، وبالخنوع اشد اتصالا ووثوقا ٠ هو موضوع التنازع لانه ينجذب وينحاز اما عن وعى او عن غير وعى ، تاتيه المادة فيرتمى فى احضانها ويكون عبدا لها ٠ وقد تهزه اليقظة الروحية هزتها العنيفة فيأخذه حنين قوى الى السمو والخلود ٠ واذن فان انسان المسعدى ليس من هذا الصنف الضعيف ، انه ليس ضحية الصراع وانما هو يقود الصراع ، ودوره اقرب الى الاستسلام ٠ انسان السد بطل لانه يصارع فلا يصرع ، ويقاوم فى غير استسلام ، وبذلك وجوده يمتاز بالايجابية والايمان ٠

ولئن كان البطل فى السد يصارع فلانه آمن بالانسان ، وسبر طول الطريق وبعد المسافة واعماق الابد ، ولان حظه من الروح يتعاظم ويتسع حتى يفيض فيكتسح المادة ويخلق تيارا قويا يدفعه الى غايته البعيدة الشاقة التى يسعى اليها فى غير توان ولا اعياء ٠

اما عالم المسعدى فهو عالم جدب وصلابة ٠ وقد يتوهم البعض فى فهمهم « للجبل الأخشب والنبات كالابر والارض الضمأى » انه جدب مادى ، والحق ان الكاتب انما اختار هذا الاطار القاحل الشائك ليوحى بالجدب الروحى والخصب المادى ، ولكنه خصب جامد قوامه الصخور والجلاميد واليبس ٠ عالم فراغ إلا من المادة ، ومحيط لا حظ فيه للقيم والمبادى التى يتخذها الانسان مطية السمو الروحى الاخلاقى ٠ ان قساوة العالم ويبسه واشتداده لهو الاطار الطبيعى واللازم لكل صراع ٠

وخلافا لما عرفناه فى كتاب آخر للمؤلف « حدث ابو هريرة » من رحابة العالم الذى يصطرع فيه الابطال وترامية ، اذ هو يشمل الصحراء على رحابتها بكثبانها وتلالها ورمالها نجد انفسنا فى السد وقد اشرفنا على عالم ضيق لا يكاد يتعدى الجبل والصخور والكهوف والوهاد السحيقة ٠ لاشك فى انه عالم ثرى بالاشكال ولكنه فقير فى المساحة ٠ ثم ان تلك الاشكال على نشازها وجفائها لا تخلو من جمال عليه مسحة من القوة والعنف : « وفى الوادى صخور كسرب من الحمير تشرب » ٠

وكما ان صلابة المحيط فى عالم السد توحى بالصراع والثورة فان ضيقه يشعرنا بان الغاية التى يقوم من اجلها الفعل ليست بعيدة فى الواقع اى فى المكان ، وإنما هى أبعد من ذلك بكثير فى عالم النفس أو فى عالم المثل ٠

ربما يكون المسعدى قد ضاق بالحضارة المادية وكره المدنية المحمومة ، تلك القلعة الكبرى وذلك الصرح الضخم الذى تم للانسان بناؤه وخلقه فى ما مر به من الزمن ٠ ولم تمنع عظمة البناء ولا فخامة الصرح من ان ينوء بهما الانسان فله من ثقل ما بنى عبء وأى عبء ٠ واذا كانت المدنية بماديتها البراقة تنقض ظهر الانسان فلانها اقيمت على اسس من الجفاف الروحى ، هو نفس الجفاف الذى نعيشه فى جبل السد ونحن نقبل على قراءة الرواية : « تنقض الاعباء ظهور العباد ٠٠٠ فتكون الصلاة ، ويكون الدعاء ٠ »

ولست ارى فى ذلك دعوة الى الدين او حنينا الى الصلاة والعبادة وانما هو تذكير بالنفس وبكل ما يثرى الروح ويدعم ثقتها فى قيمة الانسان وفى حظه من السمو الا لهى ان هو عمل على ادراك ذلك السمو او الانتحاء منحاه ٠

ومن اجل ذلك كان بناء السد ٠ انه سد فى وجه الغرائز الجامحة وحاجز محت من شهوات الجسد وطغيان اللذة على الانسان ، واستبداد المنفعة والتكاثر والجشع بنفسه حتى لتخاله انسانا وهو الى البهيمية اقرب ٠ ولا سبيل الى ان يحقق الانسان هدفه الاسمى من السمو بانسانيته ان لم يشرع فى بنائه الروحى العظيم مبتدئا بالتحرر من سلطان المادة عليه ٠ ولن يخفى على اى قارىء للسد ما قصد الكاتب الى التماسه من معانى القوة والعظمة والثبات لهذا السد، يدل على ذلك ما قدم من تصوير حسى دقيق للجو الذى كان ينجز فيه : « وحول السد قواة لا تحصى وحركة ودوى وعمل شديد وجهد عرديد ٠٠٠٠٠ »

ان تلك المعانى الفياضة بالقوة ، النابضة بالحركة لتدعم فى اذهاننا ما قد يكون المسعدى عمد اليه من خلق ضرب من التوازى بين ما يعتبر مفخرة الانسان حضاريا وما يقابله من ذلك الهيكل الروحى الفخم الذى لا ارتقاء بدونه للانسان ٠

وتعتمد الرواية اساسا على اتجاهين يمكن تعريفهما بالواقع والممكن ٠ والواقع هو صوت المادة والجمود الروحى تجسمه ميمونة وصاهباء ، ثم الممكن ويجسمه غيلان ٠ وقد نلاحظ من اول وهلة ان القصة تتبع هذين الاتجاهين

فى وضوح وجلاء . يقول غيلان « ومع ذلك فقد نزلنا بالخيال » ، وتجيبه ميمونة « حلول الدودة بالثمرة » .... والبعد ما بين الخيال والدودة هو نفس البعد ما بين الروح والمادة

ثم ان سلوك الاتجاه الخيالى ضمن التيار الروحى الجارف تدعمه ثورة عارمة تقوض الحدود والنواميس والعراقيل ، حتى يتحرر الانسان ويكون الفعل مجديا مفضيا الى اقامة البناء الروحى للانسان . والحرية التى ينشدها انسان السدهى انطلاقة من قيود المادة الخالقة للعجز والصانعة للجمود الروحى والاضراب عن الفـعـل .

ـ غيلان : « لا يا ميمونة ، بل الكفر بالنواميس والحدود والعراقيل وانكار العجز والاسلام ونفى العدم .. » .

والحرية فى السد ، او الثورة من اجل الحرية ، لم تكن هدفا فى حـد ذاتهـا وانما هى وسيلة ناجعة ولازمة لجعل الفعل ممكنا ، اى فتح طريق الانسان لتحقيق ما رسم لنفسه من غاية نفى العدم وتحقيق الخلود .

ولقد مهد الكاتب لثورة الانسان الروحية فى الرواية بان خلق لها اطارا من الماورائيات كالاصوات الهاتفة والوحى والانبياء : « انى اسمع هاتفا .... » « انه وحى وانانبيان ...... » .

ولم يهمل ما ينبغى اخفاؤه عادة على الجو الثورى من الهول والقوى الجارفة ، وعناصر كالنار ، والأوار ، الحر الرعد والجلاميد .

قد يكون متحتما تحديد ما ينصرف اليه مدلول الفعل فى السد . وخلافا لما قد يتبادر للذهن من انه فعل مادى بناء فى الحقل الحضارى للانسان فانى أو من بان الفعل هنا هو فعل للانسان من اجل الايمان بالانسان والسمو بـروحـه ووجـدانــه .

قحط رمـاء .. ان السد فى وجه القحط مـا هـو الا سـد فى وجه المـادة لاثراء الروح وانمائها ، والروح هى الماء .. « وانما هم قوم افعمت نفوسهـم مياه كاذبة برطوبة كاذبة .... فروا من الفعل عجزا ... »

وسوف لن يندفع التيار القوى نحو ما اريد له من غاية بدون ان تعترضـه حدود وعقبات وعوائق تصده عن سبيله صدا،ولكنه يستمر كاعنف مايكونقويا

عاتيا جرارا • وأهم ما يبرز من هذه العوائق الاهة المادة وحبيبة الجفاف الروحى صاهباء : « ويذهب الماء بصاهباء وقحطها ونبيها ••••» • واخرى ميمونة وهى النفس الامارة بالسوء ، غايتها القعود بالانسان عن انجاز بنائه الروحى ، فتكون حجرعثرة بما تثيره من مخاوف وما توحى به من التشاؤم والتردد والحيرة •• « وانت يا ميمونة ؟ •• ألست الشك والحيرة ؟ •• » • ويقول ايضا « ميمونة ، يادودتى ويا دائى ويا صيحة الحيرة فى روحى •••• » ونرى البطل فى الرواية او نزوع الانسان نحو السمو الالاهى يقف مقاوما ثابتا ثبوت الايمان فى النفس لا يتزحزح •• « ليس فى الحدود والعراقيل حد واحد ولا عقال واحد يعجز عن كسره العزم •• » •

ولكن ألا يكون استخفاف الانسان بالحواجز والعراقيل من قبيل اعتداده بنفسه وما يحمل من كبر وغرور ؟ ••• والا يجوز ان يكون كل ما ارتآه ممكنا لا يتعدى الفراغ والخيال العقيم ؟••• ان تعلق الانسان بالاهداف البعيدة لهو ضرب من الاستجابة لظمأ لا يرتوى ، وطموح لا يحد قوامه الضعف واساسه الخيال والخلاء : « والبشر من عادتهم ان يجمعوا الاوهام والمعتقدات •• »

ولن يخرج الصراع من حوزة المادة والروح بانتقاله ظاهريا الى تنازع بين الواقع والخيال ، بين الممكن وغير الممكن • الم يكن الخيال هو المزين للانسان بان يدرك الكمال فيتطاول على الصعاب ويهزأ بكل الحواجز ويستخف بالحدود والعقبات ، ولكنه مع ذلك عاجز قاصر كل القصور والعجز الى درجة لا يقوى معها حتى على « ادراك ما تقتضيه الحياة من التسليم والجبن والاسلام •• »

وليس من غرض المؤلف فى الرواية ان يظهر قصور الانسان او وقوفه عاجزا مدحورا امام « اللاممكن » ، وانما هو يجعل كل همه تصوير انسان قوى بالايمان ، عاجز فى الفعل ، تترامى غايته بعدا مثلما يترامى عجزه ضعفا وصغارا وهو فى هذه الحالات جميعها غير مدرك ، اللهم الا لما ينسبه لنفسه من طاقة مزعومة وقدرة كاذبة • فهو يعيش الضعف ويتوهم القوة ، يتنفس الحقارة والصغر وهو ادنى من ان يرى نفسه او ينظر فى اعماقه •

والسد لا يفضح ضعف الانسان رغم ما نعرف من الفشل الذى ينزل به فى آخر الرواية ، وانما هو يستغل ظاهرة الضعف ليبرز فى وضوح وجلاء قوة الجانب الروحى لدى الانسان ، تلك القوة التى جعلته يروم ادراك السمو الالهى وقهر الفناء والعدم ؛ فيبدو بذلك تخبط الانسان واضطرابه اضطرابا أبديا بين

قصور يدعمه الواقع والفعل ، وقوة طموحة لا يبررها الا الخيال ، ولا تقوم الا على الوهم والفراغ ، ولا يحركها الا ذلك التعلق الدائم بغاية تتعدى كل قوى وكل طموح ٠٠٠ « ان حياتنا مفعمة عقبات ٠٠٠ خلو من كل وصول ونزول وكل قرار وسكون ٠٠٠٠ » ٠

ان تطلع الانسان الى الكمال الروحى لا يفسره الا جهله بما تنطوى عليـه نفسه من ضعف ، وما تخبئه حنايـاه من ظلمـة وفسـاد ٠٠ « انما اردت ان اقول : حلول الدودة بالثمرة ، فالثمرة الى التعفن والفساد » ٠ وسواء كان بطل السد اى انسان المسعدى ، مدركا لضعفه شاعرا بقصوره ، أم هو جاهل لهذا أو متجاهل ذاك ، فان مرماه البعيد يبقى فى كلا الحالتين مصورا لمحاولة الانسان الأبدية تغطية نقصه بالتعامى عن ذاته او بسترها واقامة الحواجز والحجب التى تقوم حدا مانعا لبصره وبصيرته عن النفاذ الى ما لا رغبة له فى الوقوف عليه من عفونتى النفس والجسد ٠

وهكذا يكون التفات الانسان الى اثراء الروح فيه ، ثم اتخاذها مطية يتوهمها موصلة الى كمال لا يعرف النقص ، الى سمو روحانى كله نقاء لا تشوبه شائبة ، يكون من قبيل التماس الملجا او المهرب الكفيل وحده بان ينسى الانسان كلما التجأ اليه او لاذبه ما يكبله من قيود لا مفر له منها ، قيود المادة كما تجسمهـا الغرائز والشهوات ، ونزوات النفس على اختلافها ٠

لا يغطى عتو المادة الا وداعة الروح ، ولا بشاعة الضعف الا جمال القوة ، ولا سفول النقص الا سمو الكمال ٠٠ « وما احتـاج الى سـد الا مـن خشـى التجرد ٠٠ وما استحيى من كشف النفس الا من كانت نفسه فى قبح العورة »٠

وهكذا فان انسان السد ينشد الكمال الروحى بلهفة قصوى وعزم ثابت لا يوازيهما الا لهفة وعزم غيلان فى بناء سده ٠

واذن فالدفق الروحى فى السد من الانسان وللانسان ، وبذلك يكون البناء الروحى العظيم مجرددفعل ضدالحدود والضعف والعجز. وانما هى معانلم تتجاوز الانسان رغم ما انطوت عليه من معالم السمو والكمال والجلال : « ٠٠٠٠ دع عنا السماوات والاعالى ولنكتف بالارض ٠ وانك ان اتممت الفعلوانهيته فقـد قتلته » ٠

انك لن تكون مؤمنا بمجرد ادعائك للايمان واعلانك له ، وانما انت مؤمن لانك تحاول دوما ان تكون ، فتهدف اليه بكل جارحة فيك ، وبكل نبضة فى

قلبك وكل خلجة من خلجات وجدانك وشعورك ، فانت مؤمن بقدر ما تنهد الى الايمان ، لا لانك تحمله فى قلبك وينطوى عليه كيانك . واذا كنت لا تؤمن فلانك تفنى وجودك وتذيب كيانك فى سبيل الوصول الى الايمان ؛ تلك هى قوة الانسان ، وذلك هو الدفق الروحى القوى الذى لا يتوقف .

وانا لنضع حدا لايماننا بالانسان اذا آمنا بانه وصل او قارب الوصول الى غايته عن طريق الفعل فى البناء الروحى لان ذلك الايمان انما هو مستمد من جهاد الانسان الابدى ولا مما يتولد كنتيجة لذلك الجهاد . وان سمو الجهاد وشرفه ليس من سمو الغاية وشرفها بل لكونه لازما وابديا خالدا . « فليبق هذا السد غير تام ليبقى له خلوده ... » . « لا تكون الطريق طريقا حتى تكون بلا نهاية ... » .

وطلائع الفشل فى السد تبدو لنا فى أول الامر مستأنية متمهلة تمهل انهيار الايمان وموت الروح ؛ وعلى حين يرتفع صوت المادة مجلجلا عاتيا داعيا الى الفشل والتراجع امام سلطان اللذة والشهوة ، نجد الفيض الروحى يتقلص ويتناقص حتى ليكاد يترك الانسان فى جفاف مميت .

ولعل اهم ما يؤدى محتوى الرواية ما ورد من قصة هامان على لسان ميمونة فهامان قد لقى من الجسد والحس شديد العذاب ، فاعتصم بالعقل يلتمس فيه السمو واشتداد الروح ، ولكنه توهم انه خلق نفسه خلقا جديدا . وسرعان ما تردى فيما كان لابد من ان يتردى فيه من عبودية الجسد ، لان « الحس بقى تحت العقل كخامد النار ، وانه كان للعقل حدا وقيدا .. » .

وبعد انغماس فى اللذة واستجابة لداعى الجسد ثم مجاهدة كل ذلك ومغالبته بالعزم والحرمان بلا طائل ، يدرك هامان « انه قصر عن نفسه وقصرت عنه نفسه . فدخله من ذلك اليوم الجنون ... » ، « فسقط وتساقط فى باطن نفسه انقاضا ، كانقاض بيت متهدم .. » .

تلك هى بداية هدم السد، أوهدم ما توهم الانسان انه قادر على بنائه من صرح « الروح والعقل والايمان بالانسان والقوة .. » . وهى فى الآن نفسه بداية الاستسلام والرضى بما قدر للانسان من انتصار الجانب الحيوانى فيه على ما اراده من سمو روحى ... «ما قدر لهؤلاء الناس وهذه الارض غير الظما والامحال واليبس والقحط . » .

والحقيقة ان الهدم وما يوحى به من الفشل والاسلام والياس لا يعنى فى السد اضرابا عن الفعل وتوقفا عن مجاراة الدفق الروحى ، وذلك فى نظرى من اهم الجوانب الانسانية التى وفق الكاتب الى تصويرها ٠ ومع ان السد ينتهى بالفشل فانه لم يزد على أن اظهر قوة الانسان ٠ انها ليست قوة جبارة ، ولكنها قاصرة محدودة ضعيفة مكابرة ٠ وبذلك تكون قوة الانسان الروحية المغرية بالايمان به اندفاعا فى عجز ، وتطاولا فى قصور ، وطموحا فى خلاء وفراغ ٠ ومن ذلك التضارب القوى تنبع قوة ان شئنا سميناها موهومة كاذبة ولكنها قوة روحية دفاقة كالسيل لا يزيدها ما يحف بها من مظاهر الضعف الانسانى الا رسوخا فى الاندفاع وامعانا فى الثبات ، وقد ينتهى بها ذلك الى بناء صرح روحى سريع التداعى والانهيار ، ولكن القوة لا تبرز فى عظمة البناء وشموخه بقدر ما يظهرها العناد وتزينها المكابرة الدائمة دوام الحياة ٠ ان هدم السد ما هو الا تصدع حلقة تافهة من حلقات كفاح الانسان من اجل ادراك السمو الالهى عن طريق الروح ، وهو ، ابعد ما يكون عن الفشل المتعارف المفضى الى القعود عن الفعل وتجميد الحركة ٠٠ « وسنرسل فيهم كلامنا وروحينا سيلا جحافا حتى يعلموا قوة الروح ويذعنوا اليها ٠٠٠ »

ولما كانت القوة موهومة كاذبة ، فالسد بدوره يكون موهوما كاذبا ٠٠٠ « وهذا سدك عماده الوهم والزور واصله خداعك للنفس » ٠ ويترتب على ذلك ان الفشل فى السد ليس فشلا حقيقيا ، وان شئنا فهو فشل ايجابى خلاق لدفق روحى متجدد ٠ وهذا يعنى ان قوة الانسان تكمن فى صموده الدائم - على ضعفه وقصوره - لا فى ما ينتهى اليه ذلك الصمود من مطامح الانسان اللامحدودة ٠٠٠ « وليس فى شأن الزائفين العاجزين المتقادرين امر من العناد وادهى ٠ »

وخلافا لما ذهب اليه بعض قارئى السد من ان ما ورد فيه من فشل انما هو مشين للانسان بالنظر الى ما بنته الانسانية من حضارة عملاقة ، قائمة ، تستمد جذورها من أقدم العصور وترتمى أغصانها فى ابعاد تتعدى ايامنا هذه الى ما لا نعلم من المدى البعيد ٠ هؤلاء ذهبوا فى فهمهم للفعل مذهبا اجتماعيا انسانيا محدودا لا يبرر طموح الانسان ولا الايمان به ٠ وهب ان تلك الحضارة العملاقة هى المقصودة بالفعل فى السد فان الفشل لا يزيد على ان يكون حقيقة محضة ٠ فالحضارة وكل جهود الانسان قديما وحديثا فى سبيل دفع عجلتها ، ثم ما تشع به اليوم من بريق خلاب لا يمكن أن ينسينا ما يجثم تحت كل ذلك من ظلام وتعاسة وبؤس ٠ والا فأى بناء هو ذلك البناء الحضارى الضخم الذى لا يزال

الانسان يستعبد ويشقى ويجوع فى رحابه • انه لبناء كاذب قائم على الفراغ لانه لم يحسن حظوظ الانسان فى الارض • وانه لصرح متداع متقوض الاركان والانسان بين انقاضه يتجرع مرارة الفشل ويعانى كابوس الاستسلام •

ان الفشل فى السد هو النهاية التى كان يجب ان يفضى اليها غرور الانسان وطمعه فيما يتعدى طاقته ويتجاوز ذكاءه وما ينفذ اليه بصره وبصيرته ؛ وان هو توهم انه ملك ناصية المادة فاخضعها لمشيئته بوقوفه على بعض اسرارها فان وهمه ذاك قد زين له ان عالم الروح بما ينطوى عليه من سمو وجلال أمر هين ميسور ، فى الامكان اخضاعه لارادة الانسان • ولكن يبدو ان الانسانية لم تدرك لحد الآن ان الطريق الى السمو الروحى والكمال الخلقى ليست نفس الطريق التى مكنت الانسان من زمام المادة •

م• د•

الحيـــاة الثقـــافيـــة

مجلة جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية

فى بداية الشهر الماضى برز العدد الأول من هذه المجلة الجديدة التى تشرف على إعدادها وإخراجها مصالح وزارة الشؤون الثقافيــة بتونس • وكان حافلا بالمقالات الأدبية والفنية والصور الملونة •

وإذ ترحب مجلة « الفكر » بهذه الزميلة الجديدة التى جاءت لتعزز صف المجلات الثقافية فى بلادنا فهى تغتنم الفرصة لتتمنى لها طول العمر وواسع الرواج •

ندوة القراء

أين أزمة الفلسفة ؟

بقلم : محمد الكـراى (*)

ليس مقالى هذا ردا على افتتاحية الاستاذ محمد مزالى لعدد افريل 1975 من مجلة الفكر وانما هو عبارة عن خواطر اثارتها فى قراءة هذه الافتتاحية ٠

لقد اثلج صدرى ما أكده الاستاذ مزالى من « ضرورة الفلسفة بمعناها السليم وبعيد أثرها فى تكوين الشباب ورياضتهم على التفكير النير المستقيم والنقد الرصين البصير واستعدادهم للتمييز بين الخير والشر وسعيهم الى الظفر بسلم قيم وجملة مبادىء يهتدون بهديها فى الحياة الدنيا ويحلو لهم العيش بعضهم مع بعض على أساسها » ٠

وان هذا التحديد لمقاصد الفلسفة التربوية لهو نفس ما ورد صريحا فـى التوجيهـات الرسميـة المتعلقـة ببرامج الفلسفـة التى تبين بـلا اشكال أن « تدريس الفلسفة يهدف أساسا الى حفز العقول على التفكير وتنمية ملكة النقد عند التلاميذ حتى يكونوا قادرين على التحليل البصير المنظم للمشاكل الاساسية التى تشاغلهم » ٠

ومما لا مراء فيه أن الاهتمام الكبير الذى يوليه التلامذة للفلسفة لا يعـزى « لكبير الحظوة التى تتمتع بها بالنسبة لكافة المواد التعليمية الاخرى » فـى السنة السابعة ولا للضارب الرفيع المسند اليها بل يتعدى تلك النظرة الانتفاعية الضيقة ذلك لان دراسة الفلسفة تتيح للتلميذ فرصة ثمينة للتفكير فيما تجمع لديه من معلومات وتجارب وللتبصر فيما يحياه مـن مشاكـل وتناقضـات فالشباب فى بلادنا يعيش فى محيط قد تتنافـر وقد تتآلف فـيه المعتقـدات

(*) **الفكر** : نشكر الاستاذ محمد الكراى ، متفقد التعليم الثانوى المتخصص فى الفلسفة ، على هذه المساهمة الايجابية فى الحوار الذى فتحناه حول قضية هامة من قضايا التربية ونأمل أن ينسج على منواله كل الذين ينتسبون الى الثقافة الحق ٠

والعادات والقيم والتعاليم والمعلومات فمنها ما يأتيه عن طريق التلقين والتأديب فينشأ عليه ويتغذى منه وهو لا يزال بعد حدثا ومنها ما يستقيه من الكتب والمجلات والافلام ووسائل الاعلام فينساق ويتأثر به ولربما اعتنقه وتحمس له ونسى الآخر أو تناساه وليس الامر غريبا لان تونس بلد فى طريق النمو مرتبط بماض عريق يتفاعل مع حاضر يتبدل ومستقبل تتوق اليه الاجيال على ضوء ما يهز العالم الخارجى من تيارات وأحداث .

ثم ان الفلسفة ليست مادة كسائر المواد يجنى التلميذ من دراستها معلومات مضبوطة أو تعاليم قطعية بل هى كما يقول الاستاذ مزالى « موقف فى الحياة وحرية وجرأة على التفكير فى كل المواضيع واعادة النظر فى كل الحقائق ونقد جميع النظريات والمذاهب وهى استعداد متواصل للحوار وميل الى الانضباط والدقة وتعلق باستقلال الرأى وقدرة على الازدراء بكل من يقدر نفسه فوق قدرهـا ويدعى أنه يملك الحقيقة التى لا حقيقة بعدها » .

فان كان هذا حد الفلسفة فلا غرابة ان تكون محل سخط أولئك الذين يعتقدون أنهم يملكون العلم اليقين والقيم المثلى وسر الوجود وكذلك الذين بلغ فيهم الجمود الفكرى مبلغا جعلهم لا يفكرون ويؤذيهم ان يفكر الناس .

وما الامر بحديث اذ اصطدمت الفلسفة منذ سقراط الذى حكم عليه بالموت بدعوى أنه يفسد الشباب ـ باصحاب السلطة الفكرية أو الدينية أو السياسية الذين لم تنبن سلطتهم على حق فاصبحوا يتهيبون من كل دعوة الى التفكير والنقد السليم ويصيحون « بتهافت الفلاسفة » وخطرهم على الدين والاخـلاق والسياسة غير شاعرين بأن عويلهم انما هو فى الحقيقة رفع من شأن الفلسفة القادرة فى رأيهم على تقويض أرسخ المعتقدات وأرفع القيم وأعرق أركان الحكم .

ونحن نجد اليوم قلة من المربين فى الدين ممن اصبحت الفلسفة عندهم العدو الالد والمنافس الخطر والمبارز الوحيد فهل أعيتهم الحجة وعاقهم البرهان حتى يلجؤوا الى التهجم المبتذل والشتم السخيف ؟

فاذا كان هذا الصراع القديم والحديث هو المقصود بأزمة الفلسفة فالازمـة حينئذ ليست بجديدة وقد نشأت الفلسفة فى الصراع وترعرعت فيه وهـى باقية ثابتة حية « رغم الداء والاعداء » .

والحقيقة ان المقصود ليس هذا وانما هو ان بعضهم أخذ يتكلم عن أزمـة الفلسفة عندما هب السيد « هابى » وزير التربية الفرنسى وقدم للملا برنامجا جديدا يحوى فى بعض مقاصده حطا من مكانة الفلسفة وتصغيرا من شأنها مما يجعلها مادة اختيارية كالتاريخ والجغرافيا وعلم الاقتصاد واللغات فهب المناصرون

عندنا لما يجرى فى الخارج وكذلك المترصدون لكل الفرص « لقتل الفلسفة » ـ على حد تعبير أحد المفكرين الفرنسيين ـ وطربوا لبرنامج السيد « هابى » وأطنبوا فى الحديث على ضرورة تحوير الفلسفة والحد من شأنها ولكن الخيبة كانت مرة عندما أجمع المجلس الاقتصادى والاجتماعى الفرنسى على وجوب ابقاء التدريس الفلسفى واعطائه المكانة اللائقة به (*) ٠

وعلى كل فمهما كان مآل مشروع السيد « هابى » بفرنسا فنحن كما قال الاستاذ مزالى لا نزال فى تونس « نؤمن برسالة الفلسفة وبعيد أثرها فى خلق أجيال حرة فى تفكيرها مستقلة بآرائها متهيئة الى الاضطلاع بمسؤولياتها فى المجتمع » ٠

بقيت مشكلة واحدة تعرض لها الاستاذ مزالى فى افتتاحيته المذكورة وهى مشكلة من سماهم « بالمعتدين بالفاحشة الايديولوجية على أبنائنا » أولئك «الذين آمنوا بمذهب وتعصبوا له فأخذوا يبشرون به » محاولين فرضه على الطلاب والتلاميذ ٠

وهنا يحق لنا ان نتساءل : هل أن فساد عدد من المسلمين حجة على فساد الاسلام ؟ وهل أن الاعتداء بالفاحشة الفكرية ينحصر فى أساتذة الفلسفة ؟

الحقيقة ان الفلسفة مادة « انسانية » كالتاريخ والاقتصاد والتربية فمن الشاق أن يتجرد مدرسوها من ذاتيتهم خلافا لما هو موجود فى العلوم الصحيحة التى يمكن تدريسها بتجرد كامل واستقلال مطلق ٠

فعندما تطالب التوجيهات الرسمية أساتذة الفلسفة بتوخى الموضوعية فان ذلك ليس بالامر اليسير على حديثى العهد بالتدريس المتخرجين من الجامعة التونسية أو غيرها بل يستدعى ذلك تجربة ورصانة ودربة يكتسبها الشاب المدرس بفضل العناية والاحاطة البيداغوجية ببلادنا ٠

وفى أغلب الاحيان يعيب التلامذة على أساتذتهم فى الفلسفة أنهم لا يتخذون موقفا ولا يبدون رأيا فيما يقدمون اليهم من مذاهب متناقضة وتيارات متضاربة فتحصل اذذاك الحيرة عند الابناء تدفعهم الى التفكير والتأمل لا الى « الانتساب الآلى والتصديق الساذج » ٠

وليحذر الناس كل الحذر من الابواق المهولة للامور والمضللة للعقول التى تستثمر كل زلة آتية من حديث السن وقليل التجربة للتشهير بالجميع والصيد فى الماء العكر ٠

(*) تفيد آخر الانباء أن السيد هابى عدل عن جعل الفلسفة مادة اختيارية وذلك نظرا لمعارضة أهل الذكر وبعد تدخل رئيس الجمهورية الفرنسية بنفسه ٠ (الفكـر)